Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Bibliotheca Alexandrina
0158943

هذه هي الجزائر

أحمد توفيق المدني

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إهداءات ٢٠٠١

ا.د أحمد أبو زيد

أنثروبولوجي

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

محمد توفيق المدني

تاريخ الجزائر

ملتزمة النشر والتوزيع
مكتبة النهضة المصرية
٩ شارع عدلي باشا - القاهرة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى ضحايا معركة الحرية الخالدة في قطر الجزائر النبيل .

إلى أرواح الشهداء ، ودماء الأبرياء ، ودموع اليتامى .

إلى الذين ماتوا لتحيى مقدساتهم .

إلى الذين كسروا بأيديهم الجبارة أغلال الاستعباد .

إلى الذين تحطمت فوق صخرة إيمانهم موجة الاستعمار .

إلى الذين بنوا بعزائمهم الصادقة ، بين أكوام من الجثث وبحر من الدماء وطوفان من ألسنة اللهيب ، صرح الجزائر الحرة ، السعيدة المستقلة .

أقدم هذه الدراسة المتواضعة ، اعترافاً بفضلهم ، وتخليداً لذكراهم ، وشهادة لهم أمام الله والناس أجمعين ، بأنهم استحقوا تقدير الوطن والتاريخ . وتمجيد العروبة والإسلام .

أ . توفيق المدني

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تمهيد

من هي هذه الأمة التي أدهشت العالم بجهادها ، وبهرت الدنيا ببلائها أمام أعظم قوة استعمارية جردت في قطر من الأقطار ، في أي عصر من العصور ، واشرأبت إليها أنظار سائر الشعوب تشهد على يدها مصرع الظالمين ، وتمزيق آخر صفحة من صفحات الاستعمار الدنيء القذر ؟

وما هي هذه البلاد التي يسجل التاريخ فوق جبالها ووجودها ، وبين شعابها وكثبانها ، صفحة من أروع صفحات البطولة والمجد ، ويروي قصة نضال تحريري لا مثيل له في العالم ، شاركت فيه أجيال وأجيال متعاقبة ، حتى صار ذلك النضال التحرري « القاسم المشترك الأعظم » بين سائر أفراد هذه الأمة ، وبين سائر أبناء هذا الوطن الشريف ؟

تلك هي أمة الجزائر . وذلك هو قطر الجزائر !

اسمان أصبحا ملء السمع وملء الفم وملء الضمير : اسمان أصبحا علما على كل المعاني التي تقدسها الرجولة الفاضلة ، وتمجدها الكرامة الإنسانية : الجهاد في سبيل الحرية ، والموت في سبيل الله والوطن ، والتضحية ، والإيثار ، والبطولة الصامتة ، والقيام بالواجب ، كل الواجب ، إلى آخر قطرة من الدم ، وإلى آخر رمق من الحياة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تلقت الأمة ، عن أجدادها ، فوق أديم هذا الوطن ، علماً ، و وضميراً ، وتوارثت ذلك كابراً عن كابر ، منذ أقدم العصور . فما سقط العلم ، علم الحرية ، من يد شهيد ، حتى تلقته أيدي الذين يقتفون في الشرف خطاه ؛ وما استتر ذلك السيف ، سيف الكفاح والنضال في يوماً ، فهو دولة بين الأجداد والآباء والأحفاد ، لا يزال مشهراً منذ آ السنين ، يمجد الماضي ، ويشيء الحاضر ، ويهيء المستقبل . وما خبت ذلك الضمير المتقدة ، ولا خفت نور الوضاء ، فهو ضمير الإيمان والـ والنور . هو روح قدسية جامعة ألفت بين [illegible] ذ [illegible] ويربون القادمين على حب الوطن والتضحية في سبيله .

لكن الألم ، والألم الذي على الأخص ، لا ينصرف عن هذا الشـ ولا عن بلاده الشيء الكثير . فالاستعمار الفرنسي قد أقام بين العالم و هذه الفطلة الثمينة الغالية من أرض العروبة والإسلام ، جداراً حديدياً أراد هو أبدياً ، وأراده الله مؤقتاً ، فلم تشح أخباره ، ولم يدع ذكر وتمجيد الاستعمار حق معالمه ، وطمس تاريخه ، ومحو جنسيته ، وإعدا شخصيته ، كيلا يذكر بعد ذلك في عالم العروبة ، ولا ضمن بلاد الإسلا ولا بين صفوف الأمم الحرة .

غير أن المستعمر لم يستطع أن يفرض إرادته ، رغم وسائل البط

والقوة العسكرية الرهيبة اللذين ما زالا يشهران في وجه الشعب الجزائري المناضل ، فكان الشعب الجزائري في الأخير هو الذي فرض إرادته قوة إيمان ، وبقوة ساعديه وقوة تصميمه ، وأصبح العالم العربي — والعالم الإسلامي — ، يريد أن يعرف عن هذا الشعب البطل الذي رمى بلازده كل شيء .

وهذا هو موضوع بحثنا اليوم .

فأنا لم أكتبه للدعاية ، إنما كتبته تسجيلا للواقع ، ونصرة لقضية من القضايا ، وبهذا الشكل فهو يعتمد على الصادق من أقوال المؤرخين ، وعلى الثابت من أرقام الإحصاء ، وعلى الحقائق التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ، فلا مبالغة ولا تهويل ، إنما هو التاريخ كما هو ، وكما هي نهايته ، وجد نفسه ملما بكل ما يجب أن يعرفه عن هذا البطل ، وعن هذا الشعب ، وعن هذا الجهاد .

ثم إني قد استجبت في تأليفه ، لرغبة عربية وطنية كريمة ، أبداها أخ مؤمن صادق كريم ، ألا وهو المجاهد الكبير الأستاذ محمد فؤاد جلال ، سكرتير عام مجلس الخدمات ، ورئيس مؤتمر الخريجين العرب .

فقياما بواجبي ، وتلبية لهذه الرغبة المخلصة ، أقدم لعالم العروبة ، ولأقطار الإسلام ، هذا الكتاب ، وأرجو أن يكون وسيلة تزداد بها

روابط الأخوة والتضامن والكفاح ، بين العالم العربي الناهض ، وبين شعب الجزائر المجاهد ، واسطة عقد المغرب العربي الكريم ، حتى نشترك سوياً في تقويض آخر معاقل الاستعمار ، وإقامة صرح المستقبل العربي الباهر ، على أسس الأخوة الصادقة ، والتضامن الفعال ، تحت راية الحرية ، وفي نعيم الاستقلال .

ا . ت . المدني

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

القسم الأول

التعريف بالبلاد الجزائرية

اسمها :

لماذا أطلقوا على هذه الأرض الشاسعة الممتدة بين حدود المملكة التونسية شرقا ، والمملكة المراكشية ، غربا ، اسم « قطر الجزائر » .

وهل هذا القطر مؤلف من مجموعة من الجزر البحرية ، حتى استحق هذا الاسم ، . إن هذا القطر كان يدعى فى التاريخ العربى القديم « المغرب الأوسط » إلى سنة ١٥٠٠ ميلادية ، حين تدخل الأتراك العثمانيون فى أمره ، استجابة لطلب أهله ، وساعدوا على إنقاذه من السقوط تحت ضربات الاستعمار الأسبانى الفتاك ، بعد أن انتهى أمر الممالك الإسلامية ببلاد الأندلس .

وإذ جمع الأتراك العثمانيون ورجال المغرب الأوسط سائر البلاد تحت إدارة مركزية موحدة ، اتخذوا عاصمة لها بلدة صغيرة ، ذات موقع جغرافى ممتاز ، تتوسط الساحل كأنها درة تاجه ، تدعى « جزائر بنى مزغنة »

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لوجود عدد من الجزر الصغيرة أمامها ، تستعملها لحماية سفنها والدفاع عن ديارها ضد غارة الأعداء فأخذ الأتراك وأهل البلاد يعمرون تلك المدينة ، ويشيدون بها الدور والقصور إلى أن تضخمت وأصبحت من أكبر المدن الأفريقية قاطبة ، وصارت تدعى باختصار « مدينة الجزائر » ثم أطلقوا اسمها على كامل البلاد المترامية الأطراف التي تدين لحكمها ، وهكذا نشأت في مستهل القرن السادس عشر ، وحدة تدعى الجزائرية ، أو قطر الجزائر ، مع نشأة العصر التاريخي الحديث في العالم .

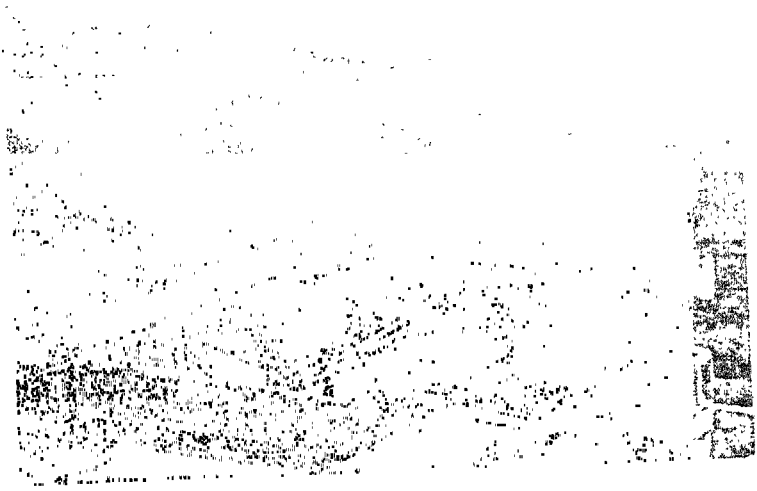

(شكل ١) مدينة الجزائر أيام الدولة المستقلة

ساحلها :

تقع البلاد الجزائرية كلها على البحر الأبيض المتوسط ، ولها ساحل صخرى فى الغالب ، يمتد نحو ١٢٠٠ كيلو متر ، فيما بين مملكتى تونس ومراكش . ويكاد هذا الساحل يسير على خط مستقيم ، ليس به كثير من الخلجان أو الجونات أو الجزر ، قد شيدت عليه من الشرق إلى الغرب ، وراء جدران وسدود سميكة ، أهم المدن والمراسى البحرية : عنابة

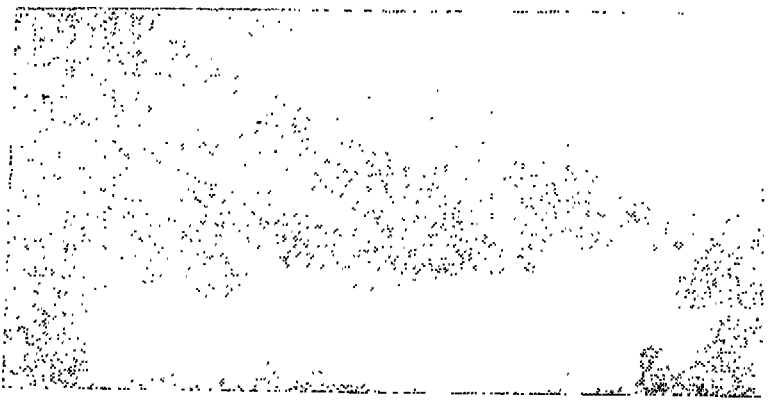

(شكل ٢) خليج قرب مدينة جيجل

(بونة) سكسيدة (فليب فيل) ، بجاية ، الجزائر ، وهران ، جيجل . الخ

حدودها :

الحد الشرقى الجزائرى حد وضعى ، يفصل عمودياً بينها وبين مملكة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تونس ، من نقطة تبتدىء شرق « القالة » على البحر ، إلى نقطة تنتهى على مقربة من مدينة « غدامس » فى المملكة الليبية .

أما الحد الغربى ، فهو وضعى كذلك ، لا يعتمد على أى حاجز طبيعى فينحدر عمودياً من نقطة غرب « الغزوات » (نمور) إلى واحة « الفقيق » ثم ينتهى غربا جنوب المملكة المراكشية .

وأما الحد الجنوبى فهو يفصل ، بصفة وضعية بحتة ، بين قطر الجزائر وأفريقيا الغربية الفرنسية ، بحيث يترك لقطر الجزائر بلاد « الهقار » التى تسكنها قبائل « الطوارق » العتيقة .

مساحتها :

يتألف القطر الجزائرى من قسمين : القسم الشمالى الآهل ، وقسم الصحراء والواحات الجنوبية .

أما مساحة بلاد الجزائر الشمالية فتبلغ ٢٠٧,٥٠٠ كيلو متر مربع

ومساحة بلاد الصحراء الجنوبية تبلغ ١,٩٨٧,٦٠٠ « « «

فتكون جملة مساحة القطر الجزائرى ٢,١٩٥,١٠٠ « « «

طبيعة الأرض الجزائرية :

القطر الجزائرى فى مجموعه نجد مرتفع ، فإذا ما ألقيت نظرة على خارطة القطر الجغرافية ، رأيت سهولا ضيقة شاسعة الغنى بديعة الحسن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تنحصر بين الجبال وساحل البحر . ووراء هذه السهول الساحلية تمتد سلسلة جبال الأطلس التلى ، من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب . فإذا ما انحدرت من هذه الجبال المتواصلة رأيت نفسك فى إقليم « النجود » المترامى الأطراف ، والذى يبلغ ارتفاعه أحياناً نحو ٨٠٠ متر . فإذا استمر بك السير نحو الجنوب ، ارتفعت أمامك شامخة عظيمة سلسلة جبال الأطلس الصحراوى التى تخترق القطر بأسره من شرقه إلى غربه ، كأنها سد منيع أحكمت صنعه يد الله ، ليحول دون تسرب رمال الصحراء إلى إقليمى النجود والأطلس التلى .

وإذا ما اخترقت تلك الجبال الصعبة المرتقى ، الوعرة المنحدر ، وجدت نفسك أمام إقليم الصحراء المترامى الأطراف . وإليك نبذة وجيزة عن كل قسم من هذه الأقسام التى هى كل البلاد الجزائرية المجاهدة :

التل والساحل :

الساحل الجزائرى جنة يانعة ، وحديقة غناء ، هو غوطة دمشق ، أو دلتا النيل . إنه القطعة الحيوية من أرضنا الجزائرية ، حيث الأشجار الباسقة والفواكه والثمرات ، والأعناب التى يرتد الطرف عنها خاسئاً وهو حسير . ففى هذا الساحل تمتد سهول عنابة وسهول متيجة ، وسهول وهران ، وقد صيرها الاستعمار الفرنسى قطعة من أوربا ، بعد أن أبعد عنها بشتى الوسائل سكانها المسلمين ، وتركهم كمنبوذى الهند فى العهد القديم .

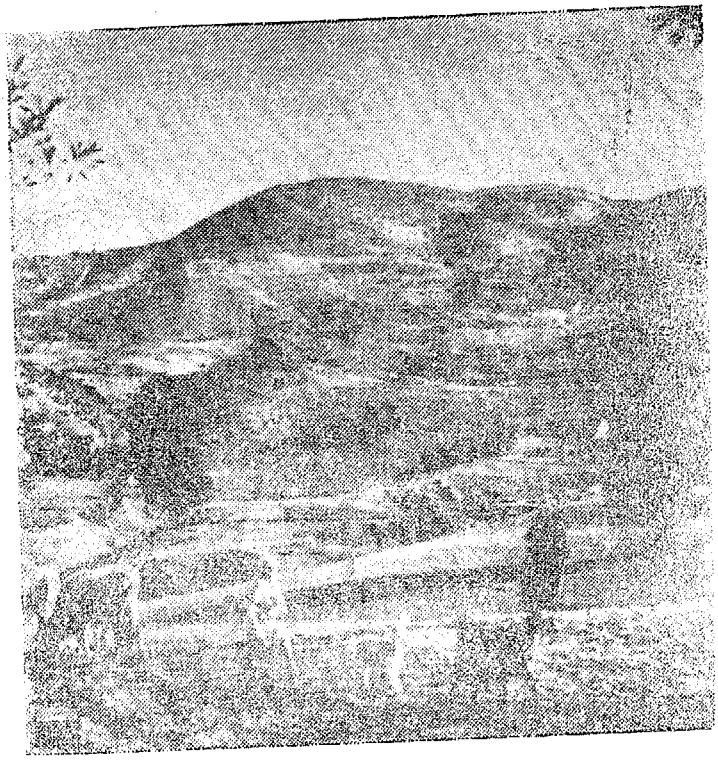

(شكل ٣) الأطلس التلى عند سكا مودى

أما الأطلس التلى فهو يمتد ويتضخم ، وينفسح أحياناً عن السهول الشاسعة الثرية ، وأهمها سهول المدية ، وسيدى بلعباس ، حيث المزارع الغنية . وترتفع جبال التل أحياناً إلى ٢٣٠٨ أمتار (قمة لالا خديجة ببلاد الجرجرة) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هذه الجبال التلية غنية ، فيها المزارع ، وتكتنفها الغابات الكثيفة ، ويسكنها الجبليون من أصلب الناس عودا . وتشمل هذه السلسلة عدة جبال متلاحقة ، أهمها من الشرق للغرب : جبال سوق أهراس . وجبال بابور . وجبال جرجرة وتدعى بلاد القبائل الكبرى حيث يعيش مليون من الناس الكادحين العاملين . وجبال الونشريس ذات الغابات البديعة ، وجبال تلمسان التى هى من أجمل ما تراه العيون .

فثلاثة أرباع القطر الجزائرى يعيشون من خيرات هذه السهول وهذه الجبال . وفى هذه المنطقة تقع أهم وأكبر المدن الجزائرية الساحلية ، مثل عنابة . وسكيكدة ، وبجاية ، والجزائر ، ووهران ، والداخلية مثل سوق أهراس ، وقالة ، وقسنطينة ، وسطيف ، والبليدة ، والمدية ، ومليانة ، وسيدى بلعباس ، وتلمسان الخ . وتمتاز هذه المنطقة بجو معتدل ، وطقس جميل ، وأمطار منتظمة .

الهضاب :

هذه المنطقة الشاسعة تنحصر بين سلسلتى الأطلس التلى ، والأطلس الصحراوى ، فهى بلاد المراعى والفضاء الفسيح ، لا تجد بها مدناً كبيرة ولا عمراناً واسعاً ، وقلما وجدت بها نبع ماء أو مجرى واد ، فأرضها تكتسى بنبات « الحلفة » الذى يجمعه الأعراب لبعض الشركات الاستعمارية الكبرى المحتكرة ، ويستعمل فى أوربا لصناعة الورق الرفيع وبعض الأقمشة ، ويكاد يكون ذلك هو المورد الوحيد الضئيل لسكان هذه

الفاحية . والطقس فيها قاس شديد : ثلوج فى الشتاء ، وقيظ فى الصيف .

وفى فصل الربيع تكتسى هذه النجود كلها حلة سندسية من الأعشاب الزبرجدية ، ذات الزهور المختلفة الألوان ، فيغدو النجد كله كأنما هو زربية (سجاد) أتقنت صنعها يد الله .

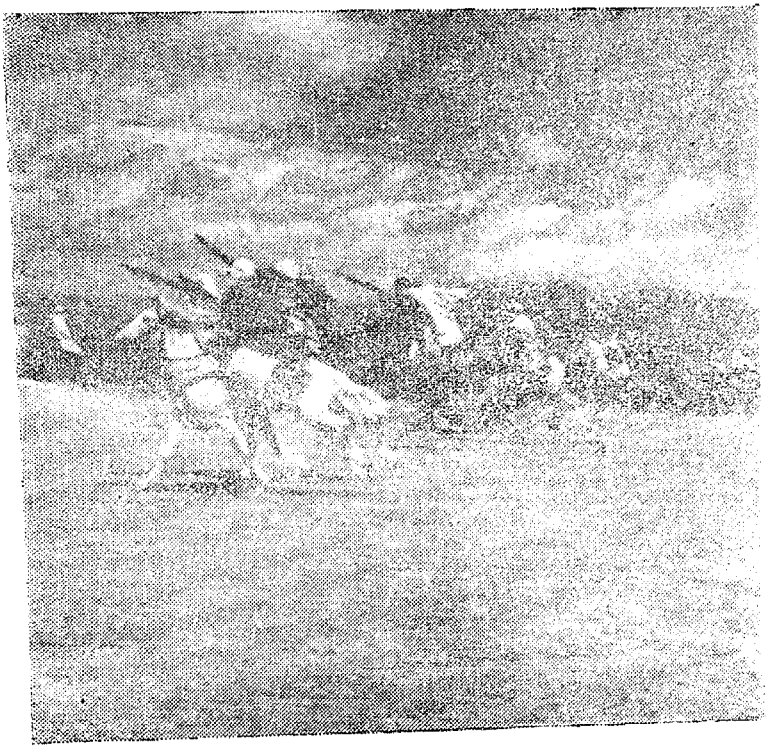

(شكل ٤) سباق الخيل عند العرب فى النجود

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فرعاة الغنم بالصحراء ، يصعدون بماشيتهم إلى هذه النجود أثناء الربيع ويمضون بها جزءاً من الصيف والخريف ، يغذون قطعان الماشية بالأعشاب الخضراء ربيعاً ، فإذا ما جفت تلك الأعشاب أصبحت تدعى « الهيشر » وصلحت لغذاء الماشية صيفاً . وبما أن الاستعمار لم يمتلك هذه الأرض ، فهو لم يحدث بها أى اصلاح ، ولم يفكر فى إيجاد وسائل لجمع الماء بها وادخاره لزمن الصيف ليكون مصدر حياة للرعاة العرب وسكان الجنوب . فالماشية الجزائرية ، وهى أهم مصادر الثروة عند العرب ، تصاب فى غالب الأحيان بكوارث فادحة من جراء العطش ، تذهب ضحيتها ملايين الأغنام ، وويل لأمة لا تحكمها الفئة الصالحة من بنيها ، وليست إدارتها فى يد ذويها .

الصحراء :

الجبال الشاهقة التى يجدها المرء فاصلة بين النجود والصحراء ، وهى من الشرق إلى الغرب : جبال النمامشة ، وأوراس ، موطن الأبطال ومنبت الصناديد من أقدم العصور ، ثم جبال أولاد نائل ، وجبال الجلفة ، وجبال عمور ، وجبال القصور .

ومن هذه الجبال ما هو مأهول مسكون ، كجبال أوراس التى تعتبر روضة من رياض الدنيا ، وجبال أولاد نائل وعمور ، من أقحاح العرب ، سلائل بنى هلال ، ومنها ما هو خلو تقريباً من السكان ، كجبال القصور .

وفى جبال أوراس الأشم ترتفع قمة « الشلية » وهى أعلى نقطة فى القطر الجزائرى (٢٣٢٧ متراً) .

خلف هذه الجبال الشاهقة ، ذات الجمال والعمران ، تمتد الصحراء بقسميها : الحمادة ، وهى بلاد الصخور المحترقة بوهج الشمس ، حيث لا حياة لحيوان أو لنبات ؛ والعرق ، وهو بلاد الرمال الذهبية ، مرتع الغزلان ، حيث توجد الحياة كلما وجد نبع ماء ، فهناك الواحات الواسعة

(شكل ٥) واد بو سعادة

الغنية التى تضرب بجمالها وبنخيلها الأمثال . ولا تنزل الأمطار بهذا الإقليم الصحراوى إلا نادراً جداً . وجوه قاس شديد ، حيث إن حرارته تبلغ صيفاً درجة ٧٠ ، وتنزل إلى درجة منخفضة جداً أثناء الليل ، أما زمن الشتاء فالبرد فيه لا يطاق .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الملحقات وبلاد الطوارق :

الملحقات هى الامتداد الطبيعى لقطر الجزائر جنوب الصحراء . وهذه الملحقات ناحية شاسعة تمر بها طرق القوافل الكبرى نحو الجنوب ، وتقع بها واحات توات ، وعين صالح ، والمنيعة وغيرها .

أما بلاد الهقار ، ويسكنها الطوارق الملثمون ، من قدماء البربر الامازيغ ، فهى قطر جبلى واسع ، أمطاره كثيرة ، وجباله شاهقة ، (٣٠٠٠ م) .

وللمرأة فى بلاد الطوارق السيادة . ويدعى الحاكم « أمين العقال » . وعدد الطوارق نحو ١٥ ألفاً ، وقد أثبتت البحوث الجيولوجية (علم طبقات الأرض) أن ثروات معدنية عظيمة جداً تختفى فى الصحراء والملحقات . لهذا أصبح الاستعمار الفرنسى يفكر فى سلخها عن قطر الجزائر وجعلها مقاطعة فرنسية ، ومساومة رؤوس الأموال العالمية عليها لاستثمارها . وهكذا يموت الاستعمار وهو يسير مع الأحلام .

الأمطار :

القطر الجزائرى قطر فلاحى بحت ، حال الاستعمار بينه وبين التصنيع ؛ والفلاحة فى قطر الجزائر لا تعتمد إلا على المطر ، فنظام الأمطار فى قطرنا هو مقياس الحياة وخاصة بالنسبة للمسلمين .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فالاستعمار الفرنسى قد استحوذ على سائر الأرض الفلاحية الجيدة ، وشاد بها السدود . أما الأرض الفلاحية الفقيرة التى بقيت بيد أهل البلاد لزهد الاستعمار فيها ، فقد بقيت فى إهمال تام ، فإن لم يجد عليها المزن بماء حدث الجدب ، وكانت الكارثة .

فالأمطار فى قطر الجزائر تكون غزيرة فى المناطق الساحلية الغنية — حيث ضرب الاستعمار أوتاده — وخاصة فى الساحل الشمالى الشرقى ، وينزل المطر فى هذه الناحية على معدل ١٠٠٠ مليمتر فى السنة .

وتليها منطقة أخرى لا تنال من لغيث إلا معدل ٧٠٠ م . م . وهى الناحية الشرقية الشمالية من البلاد — مما يلى المنطقة الأولى .

وهكذا تقل الأمطار كلما انحدرنا صوب الجنوب ، فنجد أرض النجود لا تنال إلا معدل ٣٠٠ م . م ثم الصحراء التى تنال أقل من ٢٠٠ م . م فى السنة

وتتهاطل الثلوج على المناطق الساحلية والتلية كلما زاد ارتفاع الأرض عن ٦٠٠ متر . وكذلك جهات النجود والأطلس الصحراوى ، أما جبال الجرجرة الشامخة ، فالثلج يلازمها نحو سبعة أشهر كل سنة .

الأودية والأنهار :

الأودية بقطر الجزائر — وخاصة الجهة الشمالية — عديدة ، لكنها ضعيفة جداً ، وأغلبها يجرى زمن الشتاء دافقاً ، فإذا ما حل فصل الصيف جف أكثرها . فما كان موجـــودا منها بالمناطق الاستعمارية بنيت عليه

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

السدود للانتفاع بمياهه ، أما ما كان بالمناطق التى بقيت للعرب فيضيع سدا ولا ينتفع به .

وليس بقطر الجزائر من الأنهار التى تسمى مع التسامح أنهاراً ، لأنها لا تجف زمن الصيف ، إلا ثلاثة ، : مجردة فى شرق البلاد ، والحراش فى الوسط ، والشلف فى الغرب ، وهو النهر الجزائرى الوحيد ، ويبلغ طوله (٧٠٠ كيلو متراً) ، وكل هذه الأنهار تصب فى البحر المتوسط .

وهنالك أودية ثانوية تصب مياهها فى البحيرات والسباخ الداخلية الآتى ذكرها . أما الأنهار التى تتكون فى شعاب الجبال الجنوبية ، فإنها تتجه نحو الصحراء ، ومن فضل الله على هذا القطر الصحراوى أن تلك الأودية ترسب فى الرمال إلى أن تجد طبقة طينية ، فتسير معها مختفية ، إلى أن تقترب تلك الطبقة الطينية من سطح الأرض ، فتتكون الواحات الغناء ويكثر العمران ، ويستمر سير المياه تحت الرمال بهذه الصفة ، إلى أن يبرز طبيعياً فتنشأ الواحة أو إلى أن يقع البحث عنها بواسطة حفر الآبار الفوارة (الارتوازية) ولولا أن النظام الاستعمارى الشنيع المفروض على أرض الجزائر قد أهمل النجود والصحراء ، لأن سكانهما من العرب ، واهتم أكبر الاهتمام بأقليمى الساحل والتل ، لأنهما محط رحال المستعمرين الأجانب ، لكانت حياة المسلمين فى الصحراء والنجود ، بواسطة حفظ المياه والبحث عنها ، حياة رغد وهناء ، وهذا ماستنشئه الجزائر المستقلة بحول الله .

وأهم الأودية التى تتكون حولها الواحات : وادى أريغ ، وعليه واحات

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تقرت وتماسين — ووادى سوف ، الذى قامت على مياهه المباركة واحات : الواد ، وقار ، وكوينين — ووادى جدى ، وهو مصدر حياة مدن وواحات : الأغواط وأولاد جلال — ثم وادى ميزاب الذى تكونت حوله حضارة وعمران الميزابيين فى سبع من المدن والواحات الجميلة أهمها غرداية ومليكة وبنى يزقن .

السباخ والبحيرات :

فى داخل إقليم النجود السالف الذكر ، يوجد عدد من السباخ والبحيرات ، يسمى بعضها : الزاغر ، إذا كانت صغيرة ، فإذا كبرت سميت : الشط ، وأهمها : شط الحضنة ، ومساحته ٢٧٦٥٠ هكتارا ، ثم الزاغر الشرقى ومساحته ٥٠٠٠٠ هكتار وتقدر كمية الملح الذى فيه بنحو ٣٣٠ مليون طن . ثم الشط الشرقى ، وهو بحيرة تقع على ارتفاع ١٠٠٠ م عن سطح البحر ، وتمسح ١٦٥ ألف هكتار ، ويقول علماء الجيولوجيا إن المياه الغزيرة التى تتسرب من هذه البحيرة تكون كمية هائلة من المياه العذبة ، لا يستطيع العقل تصورها ، تضيع دون جدوى فى بطن الأرض . فلو كانت الجزائر مستقلة ، ولو كانت مقاليد أمورها بأيدى أبنائها ، لوقعت العناية بهذه المياه الضخمة فكانت مصدر حياة ورخاء ، فى قطر حكم عليه الاستعمار بالموت فقراً وإهمالا .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

السدود :

أنشأ الاستعمار لنفسه ، من أموال الميزانية التى يدفع المسلمون معظمها ، عدداً من السدود العظيمة فى مختلف الجهات التى استحوذ عليها وجعلها مصدر غناه ومنبع قوته . وتتجلى عظمة هذه السدود خاصة بالناحية الغربية من قطر الجزائر ، حيث أصبح المستعمرون يمثلون الربع من مجموع السكان . . . فللمستعمر الأرض والثروة والسدود ، والمدن والقصور ، وللمسلم الفقر والفاقة والحرمان ومدن القصدير . وقصارى أمره أن يكون أجيراً ، يعمل لصالح المستعمر بأبخس الأثمان . شأنه فى ذلك شأن بقية إخوانه المسلمين فى قطر الجزائر ، حيثما وجد الاستعمار الكبير .

وأهم هذه السدود : سد الغريب ، على وادى الشلف ، يوزع سنوياً ١٤٠ مليون متر مكعب من الماء ، ويسقى ٣٠ ألف هكتار من الأرض . وسد بو خيفية ، فى الغرب الجزائرى ، يوزع سنوياً على الأرض الاستعمارية (١٠٠ مليون متر مكعب) ، ويسقى (٢٠ ألف هكتار) الخ . فمجموع السدود فى الأرض الاستعمارية — ولا ينتفع منها إلا عدد قليل جداً من المسلمين بقوا فى شىء من الأرض — ١٢ سدا ، (تسقى ١٢٥ ألف هكتار) ، ومجموع الماء المخزون بها سبعماية مليون متر مكعب . وتوزع سنوياً على الأرض الاستعمارية (٥٠٠ مليون متر مكعب) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

(شكل ٦) سد وادى سيق

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الغابات :

كان القطر الجزائرى غنياً بغاباته الكثيفة قبل الاحتلال ، إلا أن العدوان الفرنسى الشنيع على البلاد سنة ١٨٣٠ والحروب الطاحنة التى وقعت إثر ذلك فدامت عشرات السنين ، قد خربت البلاد ، وأتلفت القرى وأحرقت الغابات وأعدمتها . فالاستعمار الفرنسى قد استقر فى البلاد الجزائرية على أشلاء الضحايا ، ورفع مدنه فوق خرابات المدن والقرى الجزائرية ، وغرس كرومه فى الأرض التى كانت مصدر حياة الأمة الجزائرية وقد سقتها بدمائها ، فكان عدد الذين ماتوا دفاعاً عنها ، أكثر من عدد الذين بقوا إلى حين عبيداً للاستعمار فيها (أنظر قسم السكان) .

فالغابات فى قطر الجزائر لا تحجب اليوم إلا نحو ثلاثة ملايين من الهكتارات . بينما البلاد فى حاجة إلى ما يزيد على السبعة ملايين هكتاراً . والاستعمار لا ينفق أموال البلاد إلا فيما يعود بالنفع القريب على المستعمرين وعلى الإدارة الاستعمارية . وعلى القوى الاستعمارية التى يجب أن تخضع أهل البلاد، فلم يبق من الموارد ما ينفق على تعمير البادية ولا على تشجير الجبال ، ولا على ما يعود بالنفع على السكان المسلمين فى المناطق الجبلية والنجود والصحراء .

فغابات القطر الجزائرى التى لا تزال موجودة ، تقع غالباً فى إقليم التل كغابات القرو (Chene) والصنوبر (Pin) والبلوط أو الفلين (Chene Hler) ببلاد الجرجرة الأبية ، رافعة رأس الشمم إلى السماء . وغابات الأرز (Cedre) الشهيرة ببلاد الونشريين . وكذلك غابات الصنوبر الحلبى (Pin d'áep)

ثم ما بقى من غابات الزاياتين التى سيأتيك ذكرها فى القسم الاقتصادى .

هذه فذلكة موجزة ، عن الجغرافية الطبيعية للقطر الجزائرى المجاهد.

فإن أردت أخى زيادة فى التفصيل ، أو تعمقاً فى البحث ، فاسمح لى أحيلك على كتابى (جغرافية القطر الجزائرى) طبع الجزائر عام ١٩٥٢ دار الكتب المصرية عدد ط ٢٢٠٣ — أو كتابى (كتاب الجزائر) ، الجزائر عام ١٩٣١ — دار الكتب المصرية عدد .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

القسم الثاني

سكان القطر الجزائري

جاء في الإحصاء الرسمي، الذي وقع في اكتوبر سنة ١٩٤٨ أن سكان القطر الجزائري كان يومئذ ٧,٦٧٩,٠٠٠ من المسلمين ، و ٩٢٢٢٧٠ من غير المسلمين .

وبما أن مصلحة الإحصاء تثبت أن عدد المسلمين يزداد كل سنة ١٦٥٠٠٠ وعدد غير المسلمين يزداد كل سنة ١٨٠٠٠ نسمة ، فيكون عدد السكان هذه السنة كما يلي :

مسلمون	٩,٠٠٠,٠٠٠
فرنسيون وأجانب	٠,٨٦٦,٠٠٠
يهود جزايريون متفرنسون	٠,٢٠٠,٠٠٠
مجموع عدد السكان	١٠,٠٦٦,٠٠٠

وإليكم كلمة موجزة عن كل قسم من هذه الأقسام .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المسلمون

هم سكان البلاد الأصليون ، وأصحابها الشرعيون . عرف التاريخ منذ عهده الأول أصولهم وأنسابهم ، وسجل لهم أمجادهم قبل الإسلام وبعده والمسلمون الجزائريون — ولله الحمد والمنة — عصبة واحدة هي عصبة الإسلام ، وأمة واحدة هي أمة القرآن ، وجماعة واحدة هي جماعة القومية الجزائرية ، قد اعتنقوا الإسلام ديناً منذ القرن الأول الهجري بصفة اجماعية واتخذوا العربية لساناً ، والسنة المحمدية مذهباً ، لا فرق في ذلك بين جبال الجزائر وسهولها ونجودها وصحرائها ولطالما حاول المستعمرون وأنصار المستعمرين أن يحدثوا التفرقة بين المسلمين بإثارة النعرات العصبية والجنسية التي يحاربها الإسلام وتقاومها الوطنية ، فما نجح الاستعمار في ذلك ، لا قليلا ولا كثيراً .

وقامت الثورة الكبرى على الاستعمار ونظمه وأحكامه ، فإذا بالأمة الإسلامية الجزائرية تهب كلها عن بكرة أبيها ، مشاركة في الثورة ، مؤيدة لها ، ولربما كانت الجهات التي حاول الاستعمار إبعادها عن العروبة وصدها عن الإسلام ، أكثر الجهات إمعاناً في الثورة وإقداماً عليها .

أما إذا نظرنا إلى أصول المسلمين الجزائريين ، نظرة بحث علمي بحت ، رأيناهم ينحدرون من أصلين اثنين : الأصل الأمازيغي ، الذي أطلق عليه

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

اللاتينيون ومن والاهم اسم البربر ، والأصل العربى الوارد مع الفتوحات الإسلامية .

العرب :

العرب هم الأغلبية الساحقة من سكان القطر الجزائرى ، (٧ من ١٠) . وقد استقرت أقدامهم فى بلاد المغرب العربى منذ أيام الفتح الإسلامى الأولى ، وتغلغلوا بين السكان الأولين الأمازيغ — نسبة إلى جدهم الأعلى مازيغ — يعلمونهم الدين ويجمعونهم حول القرآن وسنة محمد صلى الله عليه وسلم .

لكن الجند العربى الأول ، جند الرواد ، لم يكن كثير العدد ، فبقيت أكبر أقسام البلاد على ما زيغيتها ، إلى أن حدثت تلك الهجرة التاريخية الشهيرة ، هجرة قبائل بنى هلال وبنى سليم ، من صحراء شرق النيل إلى المغرب العربى ، سنة ٤٤٤ هجرية ، فتدفق سيلهم وتكاثر عددهم ، وانتصبوا فى سائر السهول والواحات وأغاب الجبال ، واختلطوا بالعنصر الأمازيغى المسلم اختلاطاً وثيقاً فتصاهر العنصران وامتزجا ، وصهرتهم بوتقة الإسلام والعروبة ، فكونت منهم الشعب الجزائرى ، العربى المسلم ، المجاهد فى سبيل دينه وعروبته ووطنه .

كان الخليفة الفاطمى المستنصر ، يريد أن ينتقم من أمراء صنهاجة فى المغرب العربى ، لأنهم خلعوا بيعته ، وخطبوا باسم الخليفة العباسى ، فأمر

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

اعراب الصحراء الشرقية المصرية بالاجتياز إلى أرض المغرب ، وما كان يدور بخلده يومئذ أنه وطد أقدام العروبة فى هذه الأرض إلى الأبد . فرغم وقوع اضطراب سياسى واقتصادى فى البلاد من جراء هذه الهجرة ، دام عدداً من السنين فقد تمكن السكان الأقدمون من أمازيغ وعرب ، والسكان الجدد ، من بنى هلال وبنى سليم ، من الاختلاط والامتزاج ، فتكونت الجامعة الإسلامية العربية على فلول العنصريات القديمة .

والعرب فى قطر الجزائر ينتسبون إلى هذه القبائل العربية الأصيلة : أثبج — جوشم — رياح — زغبة — معقل — وكلهم من بنى هلال ابن عامر .

ثم قبائل : دياب — هيب — زغب — عوف — وهم من بنى سليم ابن منصور .

ومن أراد الاطلاع على تفصيل قبائل العرب ، وأصولهم وبطونهم ، ومضاربهم ، ومواطنهم فى القطر الجزائرى ، فإنه يجد ذلك مفصلا فى كتابنا (كتاب الجزائر) صفحة ١٢٩ إلى صفحة ١٣٨ .

والعرب اليوم فى قطر الجزائر يتحلون بأرق وأرفع ما فى العادات والتقاليد العربية الكريمة : النجدة والمروءة والكرم والوفاء . ولسانهم — وخاصة فى الجهات التى لم تدنس باستقرار الاستعمار الفرنسى — فصيح بصفة مدهشة ، لم يختلط بأى كلمة دخيلة ، فهم يتكلمون لغة قريش ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

(شكل ٧) جباة الواحة العربية

ويستعملون تراكيب القرآن ، ورثة عن آبائهم وأمهاتهم لا تعلما وتصنعا وهذا شأن البادية الجزائرية كلها ، وخاصة فى النجود وفى الجنوب .

الأمازيغ (البربر) :

هم أصل سكان المغرب العربى كافة ، وهم الذين اخترقوا عشرات القرون من تاريخه ، كما سيمر بك بعد قليل ، إلى أن وحد الله البلاد تحت راية الإسلام فى دائرة العروبة .

وهل الأمازيغ الأحرار ، بمعناه عن العرب ، أغراب عن العروبة الأولى ؟ كلا ! فإن خلدون مؤرخ البربر الأكبر ، وعمدة تاريخ البلاد القديم والمعتز بأصله البربرى كما يبدو من تاريخه ، يؤكد أن الأمازيغ أو البربر من أبناء : مازيغ بن كنعان بن حام ، وأن أصلهم من جهات ما بين النهرين بآسيا ، ثم ارتحلوا إلى بلاد المغرب ، مارين بالبلاد المصرية ، وقد أخذوا منها بعض الطقوس الدينية ، كعبادة « عمون » وآثارهم المنقوشة العتيقة ببعض جهات الجنوب تؤكد هذا .

ثم إن بنى كنعان من أهل فنيقيا ، قد اختلطوا بامازيغ اختلاطاً وثيقاً منذ سنة ١٠٠٠ قبل الميلاد ، وإذ كانت لغة الفنيقيين عربية تشبه إلى حد بعيد اللهجة العـــامية العربية المستعملة اليوم فى بلادنا ، فاستعمل البربر الأمازيغ تلك اللغة ، وأصبحت لسان المعاملة والعلم بينهم ، قبل انبثاق فجر الإسلام بنحو ١٧٠٠ سنة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

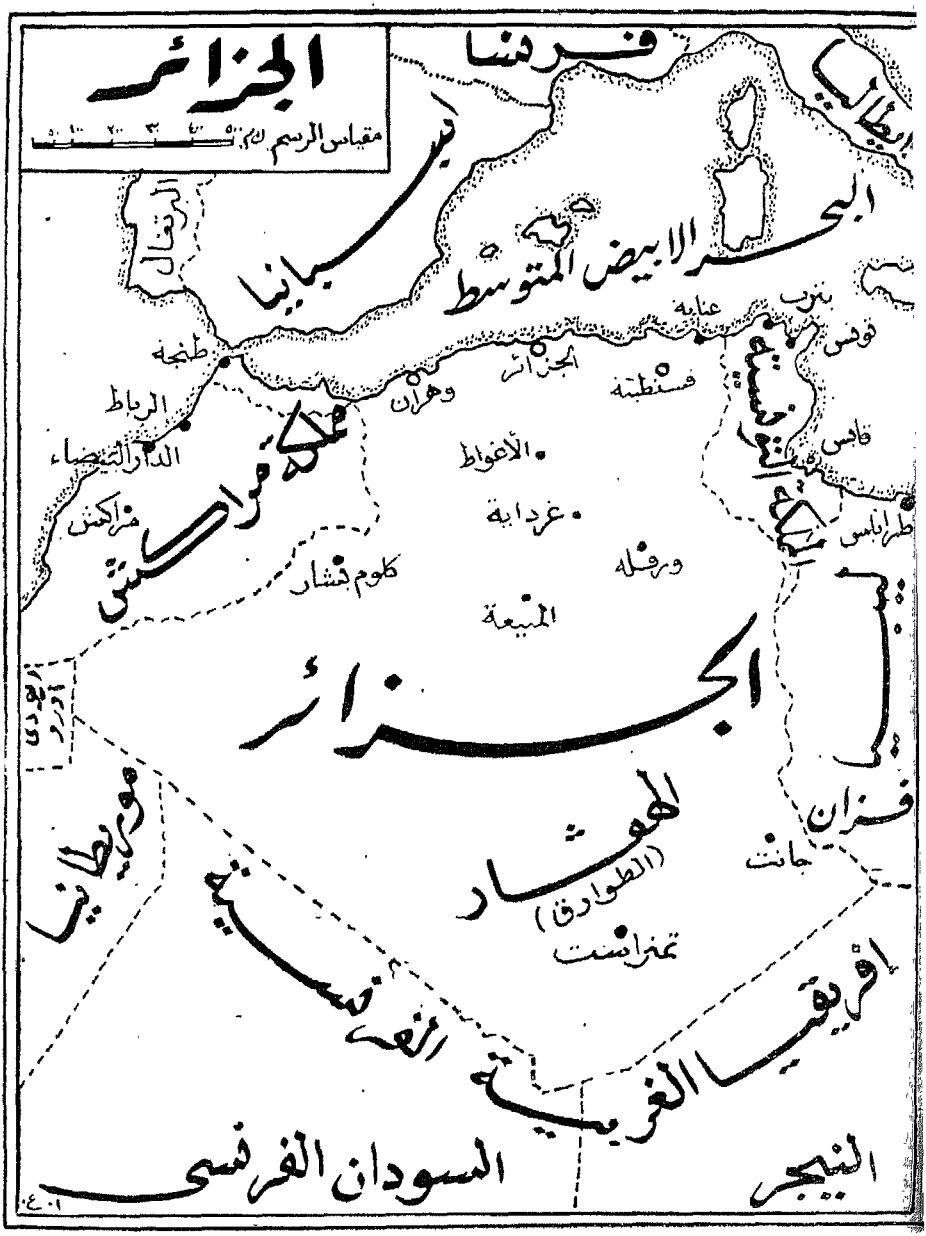

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وأغلبية الأمازيغ المستقرين بالقطر الجزائرى ، والذين لم يندمجوا اندماجاً تاماً فى العرب ، من قبائل البرانس ، ومنها : صنهاجة ، وكتامة ، ومصمودة ولمطة . والأمازيغى البربرى ، فى الجهات التى يسكنها بالبلاد الجزائرية ، يمتاز بالصلابة والشجاعة ، والتصلب للرأى ، وعشق الحرية إلى درجة الهيام ، وهو يسكن غالباً الجهات الجبلية الوعرة ، التى آوى إليها إثر الحروب الكبيرة التى اصطلى بنارها منذ عهد روما ، ويعيش فيها عيش الكد والعمل والإقلال ، فيشترك الرجل والمرأة والصبى فى الأعمال المرهقة للاحتفاظ بالحياة فى بلاد الآباء والأجداد . والأمازيغى البربرى فى جباله محافظ — مع إسلامه المتين — على تقاليده وعوائده ، مضياف كريم ، رغم فاقته ، لايصبر على عار ، ولا يضيع عنده ثأر .

والكتلة الامازيغية الكبرى فى قطر الجزائر ، هى جبال الجرجرة ، أو بلاد القبائل الكبرى ، وأهمها قبيلة « زواوة » وتقع شرق مدينة الجزائر موازية للبحر ، ففى هذه الجبال المنيعة التى صارعت الأمم وغالبت الدول ، وسجل التاريخ على فجاجها ومرتفعاتها أروع صحف البطولة والنجدة ، يعيش فى ضيق مادى وأدبى مليون إنسان ، يحتفظون بنظام العائلة والصف ويدينون جميعاً بالإسلام الحنيف ، ولهم صلابة فيه ، ويتكلم أكثرهم اللغة العربية إلى جانب اللغة المحلية ، فليس فيهم من لايتكلم العربية ، إلا نحو ٥٠ ألفاً من الناس ، ورغم أن الاستعمار قد أصاب سكان هذه البلاد بنكبات فادحة ، واستحوذ على أجود أرضهم الجبلية ، فقد حاول أن يفصل بينهم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وبين العرب ، وأن يقتطعهم من جسم العروبة والإسلام ، فنشر بين ربوعه التعليم الحكومى الفرنسى ، وقاوم العربية مقاومة عنيفة ، وحارب الإسلا حرباً لاهوادة فيها ؛ وأفسح الطريق أمام الإرساليات المسيحية التى تنادى بالنعرة البربرية ، وتدعو الناس جهاراً لمقاومة العربية والإسلام ، لكى تتكون له فى هذا القطر فئة من أهل البلاد ، لغتها الفرنسية ، ودينه المسيحية ، ولكن أهل البلادقاوموا وتصلبوا فباء الإستعمار بالفشل الذريع

فبفضل الدعوة الإسلامية التى قام بها الشيوخ المسلمون قديماً ، والنهض الحديثة التى تولت كبرها جمعية العلماء المسلمين ، والبعث السياسى الذى تم على أيدى الأحزاب الوطنية الجزائرية ، خسر الاستعمار معركته ، فإذ بالكتلة الأمازيغية البربرية تقف اليوم فى صف الثورة الكبرى ، تحت راية الإسلام ، والعروبة ، وانوطنية الجزائرية ، وقد ذابت فى جميع ذلك كل الفروق ، ولم تبق لكل أبناء الوطن من غاية ، إلا الاستقلال الوطنى ولم يبق لهم من عدو ، إلا الاستعمار الغاصب .

الفرنسيون

الفرنسيون المستقرون اليوم بأرض الجزائر على نوعين : النوع الأول مؤلف من أبناء فرنسا الذين دخلوا البلاد مع جنود الاحتلال فاستولوا بحكم الفتح على أرضها وعلى خيراتها وأموالها ، أو الذين جاؤا بعد الفتح جموعا متوالية ، تنشطهم على ذلك حكومتهم وإدارة البلاد ، لكى ينالوا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

(شكل ٨) الأمازيغ الأياة فى جبال جرجرة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الثروة والسلطان دون تعب أو مشقة ، وأكثرهم من جزيرة كورسكا وجهات الألزاس واللورين .

أما النوع الثانى ، فهو خليط من أبناء العنصر اللاتينى ، من إيطاليا وإسبانيا ، جاءوا البلاد واستقروا فيها وأغدقت عليهم السلطة الأموال ومنحتهم الأرض الشاسعة ، لكى يتضخم بهم عدد الجالية الأوروبية المسيحية ، فنالوا الجنسية الفرنسية ، وأصبحوا فى بلادنا سادة ، بعد أن كانوا فى بلادهم حثالة ، بل أصبحوا الحاكمين بأمرهم ، وأصحاب السلطة المطلقة مع بقية الفرنسيين

فهؤلاء الفرنسيون أو المتفرنسون ، الذين بلغ عددهم اليوم نحو ثمانمائة ألف رجل ، هم سبب مصيبة القطر الجزائرى ، وهم أصل الداء الذى عانت البلاد منه الأمرين ، إلى أن وصلت بعد المحاولات العديدة إلى الثورة الكبرى الحالية ، التى لاتكون وراءها إلا الحياة الحرة أو الموت الشريف .

تجمع بين أفراد هذه الطائفة التى تدعى «فرنسية» رابطة مقدسة ذات شعار مربع : الاستبداد ، الاستحواذ ، الاحتقار ، التنكيل .

١ — فالاستبداد جعل هذه الطائفة المحظوظة تستأثر وحدها بكل مقاليد الحكم فى البلاد ، فهى الدولة ، وهى الإدارة ، وهى الحكومة ، ولاتسمح لأحد ، ولا لحكومة فرنسا نفسها ، أن يزج بأنفه فى أمور القطر الجزائرى ، فهى تراه ملكها الخاص بها . ووصل بها الأمر مرارا إلى تهديد فرنسا بالانفصال عنها ، وتشكيل دولة عنصرية فى قطر الجزائر على غرار دولة الدكتور

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مالان الدنيئة فى اتحاد جنوب افريقيا . ولقد قاوموا كل أصلاح ، ووقفوا الموقف الصارم ضد كل محاولة لأزالة شيء من الحيف الفظيع والاجحاف الفاضح الذى أوجدته أدارتهم وحكومتهم بالقطر الجزائرى . فبواسطة أموالهم الطائلة وصحفهم القوية ، وسماسرتهم . . . الموجودين فى الوزارات والمجالس النيابية الفرنسية ، كانوا يتصرفون فى أمور الدولة ، ويبعدون عن القطر الجزائرى كل وال وكل موظف لم يخضع لإدارتهم ، أو تقاعس عن تنفيذ أغراضهم . وآخر منظر لهم من مناظر هذا الاستبداد الفظيع ماقابلوا به — يوم ٦ فبراير سنة ١٩٥٦ — تعيين الجنرال كاترو من قبل حكومة قى مولى الزعيم الأشتراكى حتى اضطروه لتقديم استقالته ، لأنهم ظنوا أنه ربما أنصف المسلمين فى شيء ، ثم ماقاموا به نفس ذلك اليوم ، فى مدينة الجزائر العاصمة ، من اعتداء منعدم النظير على شخص رئيس الحكومة ، وقذفه بالشتائم المقذعة ، فما وسعه إلا أن انهار أمامهم ، ورضخ لإرادتهم ، وأصبح لسان الدفاع عنهم ، يلتمس لهم المعاذير .

٢ — والاستحواذ وهو المصيبة الثانية ، جعل هذه الطائفة تستأثر بكل شيء فى القطر الجزائرى ، فلها كما رأينا الحكومة ؛ ولها الإدارة ؛ ولها المجالس المنتخبة ؛ ثم لها وحدها كامل الأرض الزراعية الخصبة فى كل البلاد الجزائرية ، ولها كل البنوك ، وكل الشركات ؛ وجميع رؤوس الأموال ، ولها كل المناجم ، وكل المعادن ، وكل حركات التجارة بين صادر ووارد ، ولها كل الصناعة القليلة التى وجدت فى البلاد .

أما أهل البلاد ، التسعة ملايين من السكان المسلمين ، فقضارى أمرهم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أن يكونوا فى أرض آبائهم وأجدادهم أجراء ، يكدحون آناء الليل وأطراف النهار ، مقابل مالا يكاد يسد الرمق . أما فى الإدارات ودواليب الحكم وشركات الأعمال الكبرى ، فلا يوجد من المسلمين أحد . فالوظيفة وقف على الفرنسى ، والعمل أن أرتفعت درجته وقف على الفرنسى ، (من ٥٠٠٠ موظف بالدواليب الحكومية لا يوجد ألا ٨ فقط من المسلمين !) .

٣ — الاحتقار : وهو ثالثة الأثافى . فهذا العنصر الذى أصبح يعتقد اعتقادا ذينيا أن الله قد خلقه وفضله فى أرض الجزائر على العالمين ، لا يكتفى بالاستبداد فى الحكم ، ولا بالاستئثار بسائر وسائل الثروة والعمل والإنتاج ، بل يعزز ذلك بصفة ملازمة لا يشذ عنها إلا فى النادر القليل ، ألا وهى احتقار المسلم ، وامتهانه ، والإمعان فى إذايته ، والتفنن فى تلقيبه بالألقاب الجارحة . فكل مسلم عند هؤلاء القوم أما (بيكو) يعنى القذر ، وأما — ترون فيڤى — يعنى جذع التين الشوكى ، وكل سيدة مسلمة عندهم إما « لاموكير » أو « فاتما » وليقس ما لم يقل . ولو أردنا أن نضرب الأمثال على ذلك لكتبنا عنه الصفحات الطويلة . إنما نحن لم ننس أننا ما كتبنا هذه الرسالة إلا لعرض علمى تحليلى ، لا لنتخذ منها وسيلة للدعاية والتشهير ولو بالحق . ومن أمثالهم المألوفة المعروفة : « العربى هو الخطر ! » و« إذا رأيت فى طريقك عربياً وأفعى ، فبادر بقتل العربى قبل الأفعى » .

٤ — التنكيل : يعلم هؤلاء القوم ، أن حكمهم الغاشم المبنى على القوة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والاستبداد لا يمكن أن يستمر وأن يدوم ، إلا ما دام المسلم الجزائرى ، جاهلا ، فقيرا ، مهملا ، فاقد الصوت والمكانة ، فهم يسرفون فى سياسة التجهيل والتفقير ، وقد أصبحت عندهم نوعاً من الهيستريا الجماعية — ولا أقولها تحاملا — فكل مسلم تعلم ، فهو عدو يجب محقه ، وكل مسلم أثرى — وذلك هو النادر — فهو الخصم الذى يجب أن يحطم . لهذا فهم يمعنون فى إيصاد أبواب العلم والمعرفة فى وجه الأمة (أنظر قسم التعليم فيما يلى) ويحاربون العربية والدين الإسلامى محاربة لا مثيل لها فى الدنيا ، ويقفون بما فى أيديهم من نفوذ وسلطان ضد أى مشروع اقتصادى لعرب القطر الجزائرى .

فإذا ما وقعت عملية زجر وقمع ، بادروا قبل كل شىء بقتل وإفناء الطبقة المتعلمة والطبقة الثرية ، كما وقع فى حوادث ١٨٧١ و ١٩٤٥ و ١٩٥٥ .

وقد تفننوا فى وضع القوانين الصارمة المنافية للإنسانية ، لإنزال البطش والتنكيل بالمسلمين ، كقوانين الأهلية « الأنديجنا » وقوانين المسئولية الجماعية التى تصيب كامل القرية أو القبيلة لذنب — نظرى — يجترحه أحد أفرادها . ثم هم يغتنمون أول فرصة تسنح لهم ، للقيام بأعمال الزجر الفظيعة الرهيبة ، بدعوى إخماد الفتنة وضرب المثل ، فآلاف الناس من رجال وشيوخ ، ونساء وصبيان يقتلون تقتيلا شنيعا ويمثل بهم ، بعد انتهاك الحرمات بصفة يتورع عن وصفها القلم النزيه . فبلاد القبائل

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الكبرى، وبلاد أوراس ، والمواطن الواقعة بين قالمة وسطيف وخراطه قدشاهد من ذلك فصولا من العار والشنار لا تمحوها يد الدهر كحوادث (٨ مايو سنة ١٩٤٥) ثم حوادث الثورة الأخيرة وما يسلكون فيها من سياسة البطش الجماعى ، وتحطيم الجهات العديدة وإف كل مراسم الحياة فيها . فأسفرت حوادث ماى سنة ١٩٤٥ عن ٤٥ أ من القتلى ، وأسفرت الحوادث الأخيرة عن ١٣٠ ألفاً من الشهداء ا يومنا هذا ، وهذه هى سياستهم منذ سنة ١٨٣٠ إلى سنة ١٩٥٦ .

فمن علم كل هذا ، ومن علم ما سنقوله بعد هذا ، لا يعجب من وقو الثورة الجزائرية الكبرى سنة ١٩٥٤ ، بل يعجب ويمعن فى العجب كيف أنها لم تقع قبل ذلك !

واليوم ، نفس هذا اليوم ، بينما تضج الدنيا بأسرها مما هو واقع بقط الجزائر من مجازر وفضائح وموبقات ، وحرب ضروس لا تبقى ولا تذر وبينما يقف الكثير من أحرار فرنسا ورجال الفكر والأدب والسياس فيها موقف الحزم والصراحة فى استنكار هذه الأساليب الوحشية ؛ نرى الفرنسيين فى قطر الجزائر — إلا النادر القليل — لم يتعلموا من منطو الحوادث شيئاً ، ولم ينسوا من تعاليمهم القديمة شيئاً ، فهم يرون أن لاعلا للحالة إلا بتحطيم كل وسائل المقاومة فى أيدى المسلمين ، ثم الإمعا فى السياسة الاستعمارية التقليدية ، كأن لم تقع ثورة بدلت الأرض غير الأرض وأوصدت أبواب الماضى ، وفتحت أبواب المستقبل !

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هذا هو وصف الفرنسى الجزائرى . أو بالأحرى : اللاتينى الجزائرى . لأن هذا العنصر أنانى إلى درجة أنه لا يفكر فى فرنسا إلا متى استطاع الاستفادة منها . وبما أن فرنسا ترى أنه لا يمكن لها البقاء فى أرض الجزائر إلا إذا ما هى خدمت ركاب هذا العنصر ونفذت له رغائبه ، فإنها كانت له — ولا تزال — المطية الذلول ، إلى أن تتمكن الأمة الجزائرية الجبارة من تغيير هذا المنكر العظيم بقوة سواعدها ودماء شهدائها وصادق عزيمتها .

اليهـــود

يبلغ عدد اليهود فى القطر الجزائرى نحواً من مائتى ألف نسمة ولقد كانوا يعاملون فى القطر الجزائرى قبل الاحتلال معاملة أهل الذمة ، ويعتبرهم المسلمون جيراناً لهم يرعون عهدهم ويحققون لهم حرية العمل وحرية المعتقد ، بل كان اليهود ينالون أحياناً المناصب الرفيعة فى الإدارة ، وخاصة — أيام الجمهورية الجزائرية — العثمانية ودولة الجزائر الحرة العربية .

وكان اليهود يلجأون إلى قطر الجزائر كلما نابتهم نائبة فى أقطار البحر المتوسط ، فمن أيام بختنصر (٣٢٠ ق . م) إلى أيام انهيار الدولة الإسلامية ببلاد الأندلس ، (أواخر القرن الرابع عشر) كانت وفود اليهود ترد على البلاد الجزائرية ، فتحل فيها على الرحب والسعة .

لكن اليهود كانوا يعتبرون أنفسهم جالية مستقلة ، فلا يشاركون فى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الدفاع عن البلاد ، ولا يراعون مصلحة الوطن فى معاملاتهم التجارية والاقتصادية ، وجاء الاحتلال الفرنسى فمالوا إلى جانبه ، واشتغلوا له سماسرة وتراجمة ، وأثروا ثراء عظيما ، وأخذوا فى الاستيلاء على مرافق البلاد التجارية والاقتصادية ، وكانوا لا يزالون معتبرين من الأهالى . إلى أن انتصبت حكومة الثورة سنة ١٨٧٠ فى باريس ، وكان من بين أعضائها اليهودى « كريميو » فأعلن فرنسة كل يهود الجزائر الشمالية ، وأخذوا من ذلك الوقت يندمجون فى الحياة العامة الفرنسية اندماجاً تاما ، وغيروا أسماءهم وألقابهم ، وتصاهروا مع الفرنسيين وتغلغلوا فى وسط عائلتهم ، إلى أن قامت ضدهم فتنة من الفرنسيين فى البلاد الجزائرية سنة ١٨٩٧ ، فما نجوا من المذبحة إلا بأعجوبة ، لكنهم عادوا بعد قليل إلى مكانتهم ونفوذهم .

وإنهم لا يزالون يسلكون سياسة اللعب على حبلين ، فهم فرنسيون استعماريون غلاة ، إن كانوا مع الفرنسيين ، وهم « أبناء البلاد » إن كانوا مع المسلمين فى تجارة أو معاملة ، إلى أن انهارت فرنسا بصفة فاضحة مخجلة سنة ١٩٤٠ ، ولم تستطع الثبات فى وجه ألمانيا أكثر من نصف شهر ، فسلكت حكومتها سياسة الميز العنصرى الألمانية ، ونزعت عن يهود الجزائر جنسيتهم الفرنسية ، فأصبحوا من جديد « أنديجين » ، وحجزت أملاكهم ، وأبعدوا عن منابع الثروة . فكثر عندئذ تقربهم من المسلمين ، وأخذوا يذكرونهم بحسن الجوار القديم .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لكن ، ما كاد الحال يتغير بانتصار المتحالفين ، حتى عاد اليهود سيرتهم الأولى ، واستعادوا أموالهم ، ونفوذهم ، ومراكزهم ، وجنسيتهم الفرنسية .

وفاجأتهم الثورة وهم على تلك الحال .

ولقد أعلنوا أنهم يلازمون سياسة الحياد ولو بصفة ظاهرية . ويبدى صغارهم للمسلمين وخاصة فى المدن الصغيرة ، عطفه ، كما يبدى كبارهم للمستعمرين تأييدهم ، وربط مستقبلهم بمستقبلهم ؛ إلى أن تحرج الموقف أخيراً — فى ماى سنة ١٩٤٦ — إذ شارك رعاعهم فى أعمال التنكيل والزجر بمدينة قسنطينة — إلى جانب الفرنسيين ، فقتلوا جماعة من المسلمين وهددوا بقتل جماعة أخرى ، بدعوى أن أحد اليهود قد قتل أثناء عملية من عمليات الثورة .

فأعلن المسلمون أخيراً فى جهة قسنطينة مقاطعة التجار اليهود — تأديباً لهم — وأخذت هذه الحركة تنتشر وتعم . ويقول الجزائريون اليوم وقد وصلت قضية الجزائر إلى هذه المرحلة الحاسمة : على اليهود أن يبينوا موقفهم بصفة صريحة لا التواء فيها ، فإما أن يعتبروا أنفسهم جزائريين ، فيعملوا ما توجبه عليهم جزائريتهم ، وإما أن يعتبروا أنفسهم فرنسيين ، فنعاملهم فى جزائر الغد على تلك القاعدة .

ولم يقل اليهود بعد كلمتهم فى هذا الصدد ، لكن نقول لهم بكل صراحة : إن من لعب على حبلين يوشك أن يخسر الصفقتين .

* * *

والآن ، وقد عرفت الأرض وتعرفت على السكان ، اتريدان أن تجول معى جولة قصيرة خلال تاريخ هـذا القطر المجاهد ، من أوائل عهـده إلى يومنا هذا ، لترى كيف جاهد خلال عشرات القرون فى سبيل حريته والذود عن حماه ، وكيف هو أقام أسس الدول العظيمة ، وأنشأ الحضارات العريقة ؟

إن أردت ذلك ، فهلم معى نخترق غياهب العصور ، إلى أن نصل إلى الاحتلال الفرنسى ، ثم ندرس بعد ذلك آثار هذا الاحتلال ، وتطوراته ، وما عمـله لتحطيم الأمة الجزائرية ، وماذا كانت آثاره فى المجتمع وفى اقتصاد البلاد ، إلى أن تجتـد أن الثورة الحاضرة كانت ضربة لازب ، وكانت النتيجة الطبيعية المحتمة لهذا الاستعمار الفظيع ، ونلج بعدئذ ميدان الثورة ، فنلقى على جوانبه وعلى أغواره نظرة فاحصة ، نرى بها أعمالها ، ونشاهد بها تحقيق آمالها . فهيا بنا ...

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

القسم الثالث

ما يجب أن نعرف عن تاريخ الوطن الجزائري

١ — الفنيقيون

كانت أمة الأمازيغ الأحرار « البربر » تعيش عيشة بدائية ساذجة فوق أديم أرضها بكامل تراب المغرب العربي ، وكانت مقسمة إلى عشائر متعددة ، وممالك صغيرة محلية ، إلى أن جاءها النور من الشرق العربي ، منذ ثلاثة آلاف سنة .

ذلك أن الفنيقيين ، عمالقـــة الحضارة القديمة ، ومخترعي الأحرف الهجائية ، ومكتشفي أقطار العالم بواسطة مغامراتهم البحرية التجارية ، قد أموا بسفنهم وبمصنوعاتهم سواحل المغرب العربي ، واستقروا فيه . ولم يكونوا مستعمرين ولا فاتحين ، إنما كانوا رواد مدنية ، ودعاة تبادل ثقافي واقتصادي ، على بساط السلم والمعاملة الحسنة ، فأسسوا على سواحل القطر الجزائري مدناً كانت تدعى المراكز التجارية ، ومنها : عنابة ، وبجاية ، وجيجل ، وتنس ، وغيرها . وأصبحت هذه المدن بعد قليل أسواقاً وطنية تؤمها جموع الأمازيغ من كل جهات البلاد ، للتبادل التجاري ، وللتعلم ، والاطلاع على أنباء الدنيا .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وإذ كانت اللغة الكنعانيين عربية الأصل[1] ، فالأمازيغ قد أخذوا يكترعون من حوض تلك اللغة ، وجعلوها لسان الطبقة الراقية منهم ثم أخذوا عن الفنيقيين كذلك دينهم الوثنى : عبادة الشمس «بعل» والقمر « تأنيث » وغيرها .

فالقطر الجزائرى قد تلقى النور من الشرق ، واندمج فى الحضار الشرقية واصطبغ بها إلى الأبد .

٢ — قرطاجنة ونفوذها العظيم

فى سنة ٤٨٠ ق.م . حدث فى بلاد المغرب العربى حدث غير مجرى التاريخ . ذلك أن أميرة فنيقية أسست مع جماعة من الأشراف ، مدينة جديدة فى الشمال الشرقى من مملكة تونس ، أسمتها « قرطة حدثت » أى القرية الحديثة . وهى التى أصبحت بعد تحريفها : قرطاجنة .

فهذه القرية الحديثة أصبحت بعد قليل ، الدولة الحديثة . وما عتمت أن صارت الامبراطورية الحديثة . فالدولة القرطاجنية الكنعانية ، وطدت أركانها فى كامل أطراف المملكة التونسية ، ثم بسطت نفوذها وسلطانها بصفة سلمية على كامل بلاد المغرب العربى ، وعلى الأخص بلاد الجزائر .

---

(١) تدل على على ذلك الكتابة التى تركوها منقوشة على الحجارة ، بحيث أن الإنسان يستطيع فهمها دون أدنى مشقة (أنظر كتابى « تقويم المنصور » ج ٥ طبع الجزائر سنة ١٩٢٩ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وكان من تأثير قرطاجنة على أمراء البربر الأمازيغ ، أنهم أخذوا يقتدون بها فى إنشاء الممالك الواسعة ، والعواصم الفسيحة ، وتمدهم هى بالخبراء الذين يساعدون على تدوين الدواوين ، وتنظيم أمور المملكة ، وهكذا نشأت بقطر الجزائر دولة نوميديا العظيمة .

٣ — نوميديا وملوكها

فى قرطة (قسطنطينة) اليوم ، استقر الملك شامخاً عظيما ، وحاول ملوك دولة نوميديا أن يجمعوا شمل كامل قطر المغرب الأوسط ، فيما بين دولة قرطاجنة (مملكة تونس) ودولة موريطانيا (مملكة مراكش) ونجحوا فى ذلك إلى حد بعيد . وكانت الدولة الجزائرية قد انتظمت وتوحدت لأول مرة فى التاريخ حوالى سنة ٣٠٠ ق . م . وتولى أمرها ملوك سجل التاريخ أسماءهم بأحرف بارزة .

وهنا اصطدم القطر الجزائرى بالاستعمار ، والاستعمار اللاتينى بعينه ، لأول مرة فى تاريخه ، حوالى سنة ٢٥٠ ق . م .

ذلك أن دولة روما الناشئة قد أخذت تتحدى دولة قرطاجنة الضخمة المترفة ، ودخلت معها فى سلسلة من الحروب الفظيعة التى دامت نحو المائة عام ، ظهرت أثناءها شخصية أعظم قادة الدنيا على الإطلاق ، « حن بعل » ويدعوه الأوربيون « هنيبال » ، وإذ كانت روما أكثر نظاماً ، وأوفر قوة ، وإذ كان جندها جندا منظما منقادا أحسن انقياد ، بينما كان جند

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قرطاجنة من المرتزقة ، كتبت الغلبة لرومة ، ومحت بصفة إجرامية فظيعة مدينة قرطاجنة من الوجـــود ، فطمست بذلك صفحات مدنية من ألمع مدنيات العالم القديم ، وكان سكان قرطاجنة العاصمة يبلغون ساعة الفتك بالمدينة ٨٠٠ ألف نسمة ؛ لم يبق منهم بعد النكبة إلا ٣٥ ألفاً !

لعب الأمازيغ دورا حاسما فى هذه الحروب . وانقسموا إلى حزبين :

حزب أراد الوفاء لقرطاجنة ، وتحقيق الاستقلال الوطنى بواسطتها ، وكان على رأس هذا الحزب الملك صفاقس. وحزب آخر، رأى أن كفة رومة هى الراجحة وأن دولة قرطاجنة قد دالت ، واعتقد أن الحكمة تقضى عليه بنصرتها والاحراز على رضاها ، وعلى رأس هذا الحزب الملك ماصينيسا ، وكانت الغلبة له وللرومان المستعمرين الذين أيدهم وساندهم برجاله وبدهائه .

وهكذا انتهى أمر دولة قرطاجنة التى كانت أول دولة ديمقراطية فى العالم ، إذ كان يشرف على نظامها مجلس نيابى يمثل أصحاب المصالح وعدد أعضائه ٣٠٠ نائب ، ومجلس القدماء أو الأعيان ، ويشمل مائة عضو ، ويتولى السلطة التنفيذية سبطان : سبط البر وسبط البحر (جمعه أسباط) .

لكن نفوذها الأدبى ، وسلطانها التمدينى ، قد عاشا بعدها فى قطر الجزائر مئات السنين ، حتى جاء الإسلام بنوره الساطع .

٤ — الاستعمار الرومانى

خيم الرومانيون على البلاد بصفة قاسية ، وكان تاريخهم فيها ، وقد دام

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٧٠٠ عام ، ينقسم إلى خمسة أدوار :

الدور الأول : دور « الحماية » فقد اعترفت روما بمملكة نوميديا ، وتركت ماصنيسا يديرها إدارة مستقلة تحت إشرافها ونفوذها الذى أخذ يعظم وينتشر . فرأى فى آخر أيامه أنه قد أصبح صورة لا حياة فيها ، وأن الاستقلال والاحتلال لا يتفقان أبداً فقضى نحبه خائب الأمل . وهكذا كان شأن بقية الملوك الذين نصبتهم رومة تحت حمايتها .

الدور الثانى : دور النزاع المسلح بين الوطنية النوميدية « الجزائرية » وبين الجيوش الرومانية . إذا ما كاد الملك العظيم « يوغورطا » يتربع على عرش قرطة ، ويحكم نوميديا ، حتى رأى أن الحرب قد أصبحت ضربة لازب ، فإما استقلال وإما فناء . وحياة الذل والخضوع حرام على كرام الرجال .

ورأى الرومانيون كذلك أنهم إن تركوا هذا الملك وشأنه ، عظم أمره ، فاستعدوا له ، واستعدوا عليه ، وما عتمت الحرب أن اشتعلت شديدة قاسية بين الجانبين ، واستبسل النوميديون « الجزائريون » استبسالا فى الدفاع عن استقلالهم وحريتهم ، لم يسع المؤرخ الرومانى « سالستس » إلا تسجيله وتمجيده . ودامت هذه الحرب زهاء الثلاثين سنة ، وعمت سائر جهات القطر الجزائرى ، وانتهت بانهيار الحق أمام القوة ، وموت البطل يوغورطا جوعاً فى سجون رومة الطاغية .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

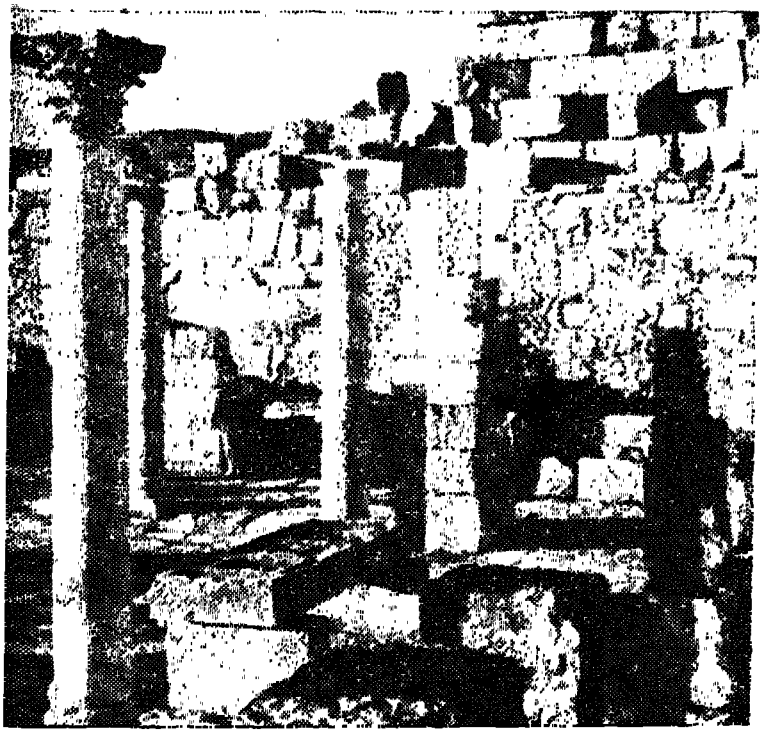

(شكل ٩) بقايا مدينة جميلة الرومانية

الدور الثالث : انتهى أمر دولة نوميديا ، ورضخت البلاد لسلطا
رومة القاسي العنيف مرغمة ، لكنها وجدت مفرجاً لكربتها ، بتلك
الحروب الطاحنة التي كانت تدور بين كبار القواد والأباطرة من الرومانيين
في سبيل الاستئثار بالملك والسلطان . فكان زعماء الأمازيغ « البربر

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ينضمون حسب مصالحهم المحلية ، إلى هذا أو إلى ذلك ، طمعاً في التخلص من الاثنين معاً . إلى أن انتهى عصر الأباطرة ، وجاء عهد الجمهورية فى رومة .

الدور الرابع : اتفقوا على تسميته بعصر السلام الرومانى . ومن أراد أن يفهم شيئاً عن هذا العصر الذى دام نحو مائتى عام ، فليدرس نظام الاستعمار الفرنسى اليوم بقطر الجزائر ، فهو يسير على غراره ، ويتبع تقاليده :

الاستبداد بالحكم دون أهل البلاد — الاستيلاء على كامل الأرض الفلاحية وتوزيعها على المستعمرين الرومانيين — إسكان نحو مليونين من مستعمرى الرومان بالبلاد ، وإقامة المدن الشاهقة والمسارح العظيمة والمنتديات الضخمة لهم — احتقار أهل البلاد واعتبارهم خدماً لركاب الاستعمار لا يعيشون إلا به ولا يحيون إلا له .

الدور الخامس : وهو الدور النهائى الطبيعى المنجر مما تقدم . فإن الأمم تمهل الاستعمار ، حتى إذا أخذته لم تفلته . فأنوار الدين المسيحى قد أخذت تتسرب إلى القطر الجزائرى ، وأقبل الأمازيغ عليه أفواجا ، فنالهم العقاب الصارم الذى كان مهيئاً للشهداء ، وما كادت المسيحية تصبح ديناً للدولة ، حتى اعتنق الأمازيغ نوعاً من الاعتزال ، واتخذوا الدين مطية للثورة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فمن نفس جبال « أوراس » الأبية ، التى انبعثت منها ثورة سنة ١٩٥٤ ضد الاستعمار الفرنسى ، انبعثت ضد الاستعمار الرومانى ثورة عارمة ، انضمت لها سائر جهات البلاد ، وشد أزرها كل أفراد الشعب الذين لم يترك لهم الاستعمار شيئا . فأخذ ثائروا الأمس — كما أخذ ثائروا اليوم — يحطمون معاً الاستعمار ، ويقوضون منشآته ، وعمت الحرب وأعمال الزجر والتنكيل سائر جهات البلاد ، وأخذ المستعمرون يرجعون إلى رومة أفواجاً تاركين وراءهم حياة البذخ والنعيم والإباحية التى ألفوها .

وما جاءت سنة ٤٢٩ ، حتى كان آخر جندى لهم يخرج من بلاد الجزائر ذليلا حقيرا .

٥ — الوندال

شعب جرمانى ، هاجم بلاد أسبانيا واستقر بها ، فأصبحت تعرف باسمه « وندلوسيا » (الأندلس) . فما كاد ذلك الشعب يرى اختلال أمر الرومان بالمغرب ، حتى عزم على مهاجمته والاستقرار فيه ، وهكذا هاجم ٨٠ ألف رجل من أصلب الرجال عوداً تحت إمرة الزعيم « جنصريق » هذه البلاد من المغرب للمشرق ، والتفت حوله جموع البربر الأمازيغ تعينه على تقويض أركان النظام الرومانى ، وكل ما هو رومانى ، فانهارت تلك النظم الظالمة ، واستقر الونداليون بكامل البلاد ، إنما اكتفوا بحكمها حكما سطحيا . فنشأت الممالك الوطنية من جديد . واسترجع الأمازيغ الأحرار ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أرض آبائهم وأجدادهم ، وكأن سبعمائة عام من احتلال رومة الجبارة ، لم تكن . ودامت هذه الحالة مائة عام . (٤٢٩ — ٥٣٠)

٦ — الروم

وهم رجال القسم الشرقى من إمبراطورية الرومان الذى استقل فى بيزنطه (استامبول) . فهؤلاء القوم رأوا مدى ما لحق بمستعمرى الرومان فى بلاد المغرب من أذى ، ومدى ما لحق المسيحيين من بلاء ، وعلموا أن موجة الوندال الدافقة الأولى قد نضب معينها ، فأرسلوا جنداً وأسطولا ، وافتتحوا البلاد من جديد .

لكن الأمازيغ كانوا بالباب . ولم يتركوا الاستعمار ينال منهم هذه المرة منالا . فالروم اكتفوا بإبعاد الوندال ، وحكم البلاد إسما . إنما الأمازيغ كانوا أصحاب السلطان الحقيقى وأصحاب الأرض . كان كل هم الروم الأحراز على الثروة الطائلة والرجوع بها إلى بيزيطة ، فسلكوا أبشع سياسة من السلب والنهب والارتشاء وكل أنواع الكسب الحرام ، فتدحرجت البلاد وخاصة قسمها الشرقى ، فى ميادين الفوضى والارتباك والحروب المتوالية ، وشعر الناس جميعاً بأن الحالة تستدعى منقذاً جديداً .

٧ — الفتح العربى

وجاء الانقاذ من الشرق بواسطة الدين المحمدى ، ومجاهديه الميامين

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقد كانت الدنيا تنتظر نوراً جديداً ، فجاءها النور من مكة أم القرى وكان المغرب على الأخص ينتظر نظاما جديداً ، قوامه العدل والحرية والتساوى ، فجاء النظام الجديد يضمن له سعادة الدنيا ونعيم الآخرة يقول قرآنه : إن أكرمكم عند الله أتقاكم . ويقول رسوله : الناس سواسية ، ويقول خليفة رسوله لأحد العظماء : متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ؟ .

كانت سنة ٦٦٧ سنة انقاذ لبلاد المغرب العربى ، حولت مجرى تاريخه إلى الأبد ، ورمت به فى اتجاه جديد ، اتجاه الحضارة الإسلامية العربية ، فبرز فى ذلك الميدان قوياً عزيزاً ، وساهم بقسط وافر فى إقامة دعائم تلك الحضارة الرفيعة الذرى .

جاء عبد الله بن سعد ، وعبد الله بن الزبير ، فحاربا الروم وانتصرا . ثم جاء عقبة بين نافع ، لتوطيد أركان الفتح ، واصطدم بالقومية الوطنية الأمازيغية التى لم تكن تريد الخضوع لأحد ، فوقعت المعارك الطويلة التى استبسل فيها رواد الدين وطلائع المدنية ، كما استبسل فيها أبطال الوطنية وأنصار الاستقلال الملتفين حول زعيمة خالدة الذكرى : الكاهنة ، وكانت الغلبة فى بادىء الأمر لها ؛ وكان معقلها « جبل أوراس » الأشم .

ثم رأت — لأول مرة فى التاريخ — أن تسلك سياسة « الأرض المحترقة » فأمرت باحراق القرى والمدن والمزارع والغابات ، كيلا يبقى للعرب مطمع فى البلاد . لكن القائد حسان بن النعمان ، أعاد الكرة على

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

رأس أبطال العرب ، فدمر الكاهنة وجموعها ، وأفهم الأمازيغ الأحرار أن القادمين الجدد إنما يتخذون شعارهم من قوله تعـــالى : إن الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى الآية ، وإنهم ما جاءوا مستعمرين يريدون الأرض ، إنما جاءوا دعاة يريدون الهداية ، فانضم الأمازيغ لهم ،وآزروهم ، ودخلوا فى دين الله أفواجا ، وما مضت مدة طويلة حتى أصبح الجند الإسلامى يعتمد على الفرق الأمازيغية المسلمة ، بل لم ينقض على الفتح إلا أمد وجيز ، حتى كان «طارق ابن زياد » الأمازيغى ، يسير إلى فتح بلاد الأندلس ، على رأس جند من خير ما عرف الإسلام من جند ، قوامه الأمازيغيون «البربر» الذين حققوا بواسطة الإسلام تلك الأمال العظيمة التى حطمتها رومة ، والتى بقيت تصارع الموت بين موجات الوندال والروم . لقد حقق الإسلام الحرية والاستقلال !

٨ — الدولة الرستمية

كان اتساع رقعه الفتوحات الإسلامية ، وامتداد أطراف المملكة من تخوم الهند وسمرقند حتى أواسط فرنسا ، وبعد الأطراف عن مركز الخلافة بدمشق ثم ببغداد ؛ سبباً فى استقلال الكثير من البلاد الإسلامية ، بأمر نفسه ، وتأسيسه ممالك محلية ، تتبع الخلافة فى بعض الأحيان اسما وتخرج عنها أحياناً أخرى .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ومما يسجله التاريخ لأمة المغرب الأوسط — الأمة الجزائرية — أنها كانت أول أمة حققت استقلالها ضمن دائرة الإسلام . فأول مملكة إسلامية مستقلة ، منظمة ، إنما نشأت بمدينة تيهرت (على مقربة من تيارت الحالية) سنة ١٦٩ للهجرة . أسسها القاضى عبد الرحمان بن رستم ، فانضمت لها كل ارجاء البلاد الجزائرية الحالية (ماعدى بعض جهات قليلة بالجنوب والشرق) وبهذا سبق الجزائريون بتأسيس دولتهم الرستمية ، المصريين الذين شادوا ملـكك بنى طولون ، والمراكشيين الذين أقاموا دولة الإدارسة .

كان نظام الدولة الرستمية ، الأباضية المذهب ، نظاماً محـكما ، مقاماً على الشورى وانتخاب الامام . وله مجلس يدعى مجلس « الشراة » يمثل أصحاب الحل والعقد . وقد عملت على مد الطرقات التى خربتها الحروب السابقة ، ونشرت العدل والأمن بين الناس ، وأحسنت تنظيم فرقتى الشرطة لحفظ النظام ، والحسبة ، للأمر بالمعروف والنهى عن المنـكر. فـكانت دولة من أرفع الدول الإسلامية المحلية التى سجل التاريخ ذكرها .

دامت هذه الدولة ١٣٦ عاماً ، وتولى أمرها ستة من الأئمة ، أشهرهم أفلح ، وابنه أبو اليقظان ، وقد ازدهر فى عهدها أمر البعث العلمى ، فعمت دروس العلم سائر المساجد ، واشتهر فى الأدب والعلم والحديث أمثال : ابراهيم بن عبد الرحمان التنسى المالـكى ، وقاسم بن عبد الرحمان ، والأديب الـكبير ابن الهرمة ، والشاعر العظيم بكر بن حماد المتوفى سنة ٢١٦ . ومن أغرب ما يذكر عن هذه الدولة ، فى ذلك العصر ، وفرة تسامحها الدينى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مع اليهود من أبناء البلاد ، ونبغ منهم يهود ابن قريش الذى ترك كتابا برهن فيه على أن العربية ، والعبرية ، والكنعانية والبربرية ذات أصل واحد. ولا تزال نسخة منه فى مكتبة اكسفورد .

٩ — التوحيد الفاطمى

فى وقت واحد انقرضت ثلاث من الدول فى المغرب العربى : دولة بنى الأغلب بتونس ، ودولة تيهرت بالجزائر ، ودولة الإدارسة بالمغرب الأقصى ؛ لتحل محلها دولة مغربيه عربية واحدة هى دولة الفاطميين الشيعية ، التى تأسست بالمغرب الأقصى ، ثم جعلت عاصمتها مدينة المهدية على الساحل التونسى ، ووحدت المغرب العربى فى دولة واحدة .

وكان مما امتاز به هذا العصر التوحيدى الفاطمى بقطر الجزائر أن اتسعت تجارته نحو الجنوب ببلاد السودان ، ونشأت على سواحلنا الأساطيل البحرية التجارية والحربية .

أما من حيث العلوم والفنون والآداب فقد كادت البلاد تزاحم مملكة الأندلس ، ونشأ ونبغ فيها فى ذلك العهد ، أمثال ابن تميم ، الطبيب الفيلسوف اللغوى ، والجغرافى العظيم محمد بن الوراق .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

١٠ — دولة بنى حماد العظمى

رأى خليفة الفاطميين المعز لدين الله الانتقال إلى مصر ، بعد ما اختطّ له قائده المغربى جوهر الصقلى مدينة القاهرة ، فعهد بأمر المغرب إلى قائد من أعظم قادته ، هو بلقين بن مناد الصنهاجى . وقد كان هذا البطل مؤسس عدة مدن جزائرية ، مثل مدينة جزائر بنى مزغنة ، والمدية ، وغيرها .

ثم أن زعماء صنهاجة بقطر الجزائر ، اتفقوا مع الأمير حماد على تأسيس دولة مستقلة ، فاختط حماد مدينة « القلعة » وانشأ ملكا عظيما شمل سائر جهات القطر الجزائرى ، وذلك سنة ٣٩٨ هـ .

عظم الملك واتسع ، واستقرت إدارته على أسس متينة ، فترك ملوك بنى حماد القلعة واختطوا لأنفسهم عاصمة جديدة هى مدينة بجاية ، فأخذوا فى تعميرها وبناء الأسوار والقصور والدواوين فيها ، والبساتين والمتنزهات ونقلوا إليها عاصمة المملكة سنة ٥٣٨ هـ .

وكان الملك الناصر بن علناس أعظم ملوك عصره شأناً ، وأوفرهم قوة وأكثرهم تنشيطاً للعلم والعلماء ، وقد سجل التاريخ عصره ضمن أجمل صفحات تاريخ التمدن الإسلامى

وخلد اسمه شاعر العروبة الأكبر ، عبد الجبار ابن حمديس الصقلى فى غرر من بدائع الشعر .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

(شكل ١٠) مئذنة المسجد الكبير بمدينة الجزائر

وتداول ملوك بنى حماد الملك ، يوطدون الأمن وينشرون العلم ، ويوسعون دائرة التجارة والصناعة ، حتى أصبحت بلاد الجزائر من أكثر أقطار الإسلام رفاهية وعلماً ورخاءً وأمناً ، واشتهرت بعلمائها وشعرائها وحكمائها ، ممن ألفت فيهم وفى أعمالهم المجلدات ، من أمثال محمد بن على الصنهاجى ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

صاحب كتاب « نبذة المحتاجة ، فى تاريخ صنهاجة ، » والمؤرخ ابن على ، واللغوى النحوى ابن العفراء ، والمجتهد ابن الرماح ومئات ومئات من أمثالهم

وحدث أيام الدولة الحمادية حادثان غيرا مجرى الحياة العامة فى البلاد :

أولهما : نزوح الأعراب الهلاليين إلى المغرب . واستقرارهم فيـــه ، وتعريبهم البلاد نهائياً .

وثانيهما : نزوح الجماعات الكثيرة من مهاجرى الأندلس إلى البلاد الجزائرية التى قبلتهم على الرحب والسعة ، فجاؤوها بعلومهم وآدابهم وصناعتهم وطرق الفلاحة والرى فى بلادهم . فساعدوا على تنمية الثروة ونشر العلوم والمعارف والآداب .

دامت دولة بنى حماد ١٧١ عاما ، تولى أمرها تسعة من الملوك ، كان لهم السلطان المطلق . وفى أيامهم عرفت الجزائر فى البلاد الغربية الأوروبية

(شكل ١١) مدينة بجاية المعاصرة ومرساها

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وتعاقدت بمعاهدات تجارية مع أغلب دول البحر المتوسط ، وكان أسطول الدولة الجزائرية فى أيامهم ضخماً ، يضرب بسهم واسع فى التجارة العالمية.

١١ — التوحيد « الموحدى »

فى تلك الأثناء كانت بلاد المغرب الأقصى « مراكش » تتمخض عن حادث إسلامى عظيم ، هو تأسيس دولة الموحدين . فبطل من أبطال القطر الجزائرى ، عبد المؤمن بن على الندرومى [1] ، تولى كبر تأسيس هـذه الدولة لتقضى على كل ما ألصق بالدين من بدع ومن خرافات وأساطير ، ولتجمع الأمة فى كامل بلاد المغرب على الهدى ودين الحق ، والتسامح الإسلامى المنقطع النظير .

فى سنة ٥٢٤ هجرية ، أسس عبد المؤمن العظيم دولة الموحدين ، وقضى على دولة المرابطين فى المغرب الأقصى ، ثم التفت إلى المغرب الأوسط ، حيث ابتدأ أمر دولة الحماديين يضعف ، وإلى المغرب الأدنى ، حيث أصبح النرمانيون الذين حطموا صقلية الإسلامية ، يهددون السواحل ، ويعيثون فسادا فى أمهات المدن على البحر ، بينما كانت الإدارة فى كل من القطرين لم تستطع هضم جموع الأعراب الهلاليين الذين نزحوا إليها واستقروا فيها .

جرد عبد المؤمن جيشاً من مائة ألف رجل ، كانوا كما يروى التاريخ يصلون خلف إمام واحد ، وتقدم إلى المشرق ، فتسلم زمام المغربين الأوسط

---

(١) من مدينة ندرومة بغرب الجزائر وقد اشتهرت شهرة فائقة أثناء الثورة الأخيرة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وأهم عواصم العلم والسياسة بالعالم الإسلامى قاطبة ، ونبغ فيها عدد لايشق له غبار من العلماء والأدباء والشعراء والباحثين ، وقصدها طلاب العلم وطلاب الشهرة من كل جهات العالم العربى .

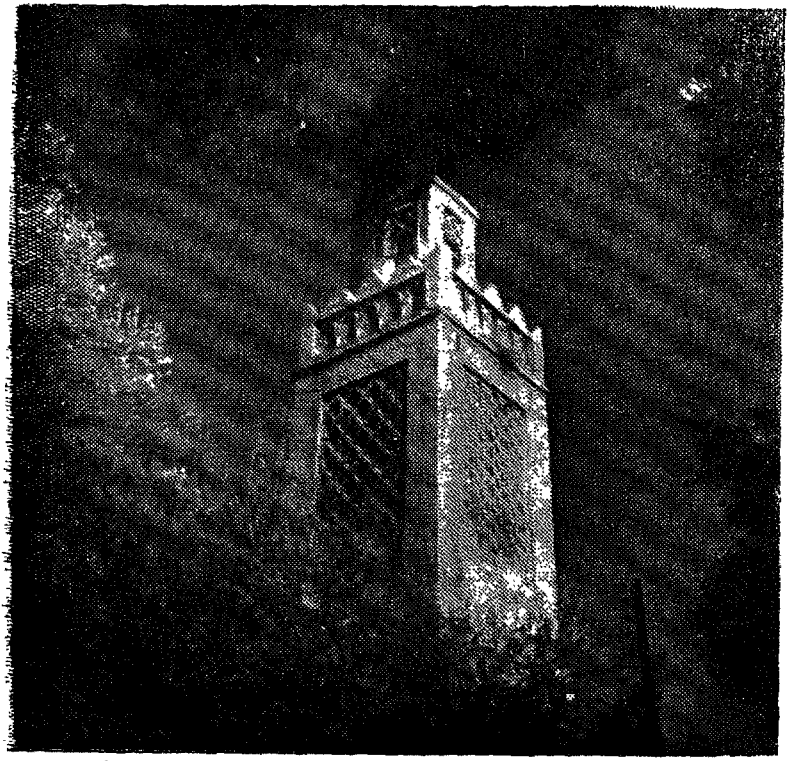

(شكل ١٢) مئذنة مدينة تلمسان

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقد أطلق ملوك بنى زيان على أنفسهم لقب ،«أمير المؤمنين» وأحاطوا الدولة بسياج من الأبهة والجلال . وقسموا السلطة إلى ثلاث شعب : الشعبة العسكرية يتولاها « صاحب السيف » والسلطة الإدارية ،يتولاها: « صاحب القلم » والسلطة القضائية ، يتولاها « قاضى القضاه » . وكان المزوال ، أو الوزير الأكبر يتولى الأشراف على كل الادارات وتحت سلطته صاحب الأشغال ، او وزير المالية والتعمير ، و « ديوان الإنشاء » المكلف بالمراسلات العامة ، والذى اشتغل فيه رجال من كبار الأدباء والعلماء سجل التاريخ أسماءهم .

وفى كل مدينة أو قبيلة يوجد « الحافظ » وهو الوالى ، والى جانبه « المحتسب » وهو حافظ النظام الاسلامى ؛ والقاضى ، الذى ينشر العدل بين الناس ، وغيرهم من موظفى الدولة وجباة الضرائب ، وكان النظام العام من أحسن النظم التى نشأت فى القطر الجزائرى . إلا أن أواخر أيام هذه الدولة التى عمرت أكثر من ثلاثمائة سنة ، قد امتازت بأمرين :

أولهما : كثرة تهالك الأمراء على الملك ، وقد غرتهم مظاهر النعيم والجلال التى فيه .

وثانيهما : قضاء الأسبان بصفة فظيعة على مملكة غرناطة ، آخر معاقل المسلمين ببلاد الأندلس ، وتشريدهم للبائسين من أهل ذلك الفردوس الإسلامى المفقود ، ثم مهاجمة الأسبان بعدذلك للثغور الإسلامية والسواحل فى المغرب العربى ، وخاصة بقطر الجزائر . وصادف أن وقعت هذه المحاولات

(م ٥ — هذه هى الجزائر)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فى أواخر أيام الدولة ، وضعف رابطتها ، وتهالك أمرائها على الملك : حتى أصبح بعضهم ألعوبة فى أيدى الطامعين الأسبان .

وهذان الأمران هما اللذان سببا انهيار دولة بنى عبد الواد ، التى سجلت على صفحات التاريخ فى بلادنا أنشودة فخر ، ينطق بها فم الدهر . ومن يرجع إلى تاريخ يحيى بن خلدون وهو « بغية الرواد » يشهد روائع ومدهشات من التقدم العلمى والفنى والصناعى لا يكاد يتصورها العقل .

لقد زاحمت تلمسان ، كما زاحمت بجاية قبلها ، القاهرة وبغداد وقرطبة ، واجتمع فيها من رجال الدين والعلم والأدب ما لم يجتمع مثله أبداً فى قطر الجزائر ، وجاءتها وفود العلم والشعر من كل جهات العالم العربى .

أما تجارة المملكة ، وصناعتها ، واقتصادياتها ، فقد كانت فى تلك العصور مضرب المثل . وكتب عنها الرحالة والمتسوحون من عرب وأغراب صحائف جليلة ووقائع مدهشة . أما من اشتهر فى هذه الدولة من أعلام الأدب ورجال العلم وكبار الشعراء ، فقد ألفت فيهم عدة كتب ، أهمها : « البستان » لابن مريم ، والدرر والعقيان ، للتنسى ، وبغية الرواد السالف الذكر ، وغير ذلك كثير .

وامتازت هذه الدولة ببناء المدارس الفسيحة التى تعتبر من آيات الفن المعمارى العربى ، وأجرت على طلبتها وشيوخها الأرزاق ، بحيث لا يهتم معلم ولا متعلم بمسكن أو ملبس أو مطعم ، إلى أن يبرز إلى ميدان الحياة العامة عاملا عالماً ، وإن أردت أن أسرد بعض الأسماء ، ذكرت

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المفسر الكبير محمد بن مرزوق ، والعالمين المؤلفين احمد بن يحيي الونشريسي ومحمد السنوسي ، وصاحب الجواهر الحسان ، عبدالرحمن الثعالبي ، وصاحب البدر المنير محمد المغيلي ، وطائفة تعد بالآلاف ، من الكتاب ومبرزي الشعراء والعلماء والمؤلفين ومن الفلكيين كالقلصادي وابن قنفذ ، ومن المهندسين العالميين كابن الفحام ، واضع « المنجانة » في تلمسان ، وهي ساعة ناطقة لا تعد أمامها أشهر ساعات سويسرا شيئاً مذكوراً . وقد نال عنها جائزة سنوية من ملوك تلمسان قدرها ألف دينار ذهباً .

وأديب الجزائر الأكبر ، وشاعرها العظيم ، المقري التلمساني ، صاحب ديوان نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب . ولا أستطيع ياعزيزي ، ومعذرة ، أن ألخص لك في صفحات ، ما تعجز عن جمعه كبريات الموسوعات إنما هي قطرة من يم .

الجمهورية الجزائرية العثمانية

لو كان هـذا التعبير من بنات أفكاري ، لاتهمني البعض بالمبالغة والإسراف في إطلاق إسم على غير مسمى . لكن ما رأي القارئ الكريم إذا علم أن هذا الأسم قد استعمله سفير من سفراء فرنسا في القرن الثامن عشر ، وعالم باحث من جلة علمائها إذ ألف بعد تمثيل دولته لدى دولة الجزائر كتاباً قيما أسماه : الجمهورية الجزائرية في القرن الثامن عشر ؟ . ذلك هو

مسيو « فونتير دى بارادى » . وكتابه مطبوع[1] .

ولنعد إلى التاريخ . لقد احتل الأسبان مرسى وهران والمرسى الكبير وهددوا مدينة جزائر بنى مزغنة تهديداً مباشراً ، واستولوا على أكبر الجزيرات الواقعة تجاهها وجعلوا فيها حصناً يضع البلدة تحت رحمته ثم أخذوا يوالون غاراتهم البرية قاصدين مدينة تلمسان . ولم تكن دول بنى زيان فى آخر عهدها مستطيعة أن تجمع الأمة لقتال هؤلاء المستعمرين الذين كانوا تحت قيادة راهب متهوس ربما لم يعرف التاريخ راهباً أكثر منه تعصباً وبعداً عن روح دين عيسى عليه السلام . فكانت الحملة الأسبانية حملة نهب ولصوصية ، وانتقام من الإسلام وانتهاك فظيع لحرمات المسلمين وكانت أخبار غارات الأسبان على سواحل المغرب العربى حديث الناس أجمعين فى ذلك العهد .

وحدث عن لصوصية البحر ولا حرج . فالأسبان والبرتغاليون قد أنشأوا مع غيرهم من رجال أوروبا سفن القرصنة ، وانهالوا على مهاجرى الأندلس التعساء ، فما كان يصل منهم إلى أرض الجزائر إلا القليل الذى فقد كل متاع وكل مال .

وكاد المغرب العربى كافة يسقط تحت تلك الضربات الفتاكة ، لولا أن تدخل القدر ، وحدثت المعجزة .

---

(١) أنظر كتابى « محمد عثمان باشا داى الجزائر » ففيه فصول مختارة من هذا الكتاب .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كانت المعجزة تدخل بطلين من أبطال الإسلام الخالدين : بابا عروج التركى وشقيقه خـــير الدين ، فى ميدان الكفاح الجزائرى . كانا على رأس عمارة بحرية من القرصان الأتراك ، يعملان متطوعين فى سبيل الله لإنقاذ مهاجرى الأندلس ، والاجتياز بهم إلى أرض المغرب ، ووقعت بينهم وبين الأسبان وقائع ذاع صيتها فى البحر المتوسط ، وتحدث بهـا المهاجرون المساكين فى كل جهات البلاد .

وأخذت وفود المسلمين الجزائريين تترى على الزعيمين البحريين ، طالبة منهما النجدة والإنقاذ ، والإعانة على دفع الأسبان عن السواحل وعن البلاد . فجمع التركيان عمارة قوية ، وتدخلا فعلا ، وحاربا الأسبان جنباً إلى جنب مع مقاتلى الجزائريين الذين التفوا حولهما ، وتكونت قوة جديدة فى البلاد ما لبثت أن طهرتها من التدخل الأسبانى الفظيع . ولم تستطع دولة بنى زيان الثبات وسط هذه الزعازع ، إذ تخلى عنها الناس ، فانتهى أمرها ، وأصبح خير الدين باشا ، ويلقبه الفرنج « بارباروس » صاحب الحكم فى القطر الجزائرى (سنة ١٥١٩) . فاتخذ من « جزائر بنى مزغنة » عاصمة للملك الإسلامى الجديد ، وأمر بردم البحر بين مختلف الجزيرات الصغيرة وأقام عليها جداراً وقلعة يحتمى وراءهما مرسى المدينـه . وهكذا تنشأت « مدينة الجزائر » وبسطت فى مدة قليلة جداً سلطانها على كامل البلاد التى أصبحت تدعى البلاد الجزائرية ، وقبـل السلطان سليمان القانونى ضمها إلى السلطة العثمانية ، كولاية ممتازة . نشأت « الدولة الجزائرية » التى تعترف

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بخلافة سلاطين استامبول ، وأخذت توسع استقلالها شيئا فشيئا ، إلى أن لم يبق بينها وبين الخليفة العثمانى سوى الروابط الأدبية الشكلية : السلطان يصادق على تعيين « الباشا » الذى ينتخبه الديوان الحكومى فى مدينة الجزائر ، وإذا وقعت حرب خارجية ، ترسل الجزائر بقطع من أسطولها وجماعة من متطوعيها للمشاركة فى الجهاد تحت راية الخليفة . أما ماعدا ذلك فالدولة الجزائرية حرة ، مستقلة ، تحارب من حاربها ، وتسالم من سالمها ، وتعقد المعاهدات الحربية والسياسية والتجارية مع بقية دول العالم ، وكانت لها فى عالمى الحروب والسياسة صولات وجولات .

وإذ كان الأوربيون يومئذ وخاصة الأسبان والبرتغال ورجال الشمال ينظمون لصوصية بحرية (piraterie) قوية ، ساهم فيها الفرنسيون بنصيب وافر ، نظم الجزائريون قرصنة بحريه عظيمة ، أصبحت ذات شوكة ترهب البحر المتوسط ؛ إنما لم تكن تلك القوة البحرية تعمل إلا ضد الدول المعادية فحسب . أما الدول المعترفة بدولة الجزائر ، والمرتبطة معها بمعاهدات فكانت تتمتع بحماية سفن القرصان الجزائريين .

وانتظم سلك الإدارتين السياسية والعسكرية فى البلاد بصفة كانت تحسدها عليها الكثير من بلاد أوربا . فكانت السلطة التشريعية بين يدى مجلس يدعى « الديوان » وفيه أكابر الدولة ورؤساء الجند .

أما السلطة التنفيذية فهى بيد الباشا الذى ينتخبه الديوان[1] ، ومجلس

(١) يطلقون عليه لقب « الداى » أى رئيس الجماعة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وزواء مؤلف من ستة رجال : خوجـة الخيل ، للحرب ، وكيل الحوج ، للبحر ، الخزناجى ، للمالية وحساب الدولة ، الآغا ، قائد الجند العام ، القبودان رايس أمـيرال الأسطول ، الباشكاتب ، وزير الداخلية ؛ أما الخارجية فهى من اختصاص الباشا نفسه ، والقول الفصل فيها للديوان .

وقد قسم الديوان أرض الجزائر إلى ثلاث عمالات: قسطنطينه ، شرقاً ، وتيطرى وسطاً ، ووهران غرباً . ووضع على رأس كل عمالة والياً يدعى « الباى » مسؤلا عن أعمال ولايته . أما مدينة الجزائر العاصمة وسوادها ، فكانت موضوعة تحت سلطة وزير الحرب «الآغا» . ولم يبق فى قطر الجزائر مكان لم يتبع هذه الإدارة المركزية المحـكمة ، إلى أقصى نخوم الجنوب .

أصبحت الدولة الجزائرية مهابة محترمة ، ذات قوة عسكرية يقرأ لهـا الجميع حسابها ، وذات أسطول شارك فى كل معارك البحر المتوسط ، فى الطليعة . ولا يزال المتأخرون يذكرون شدة شكيمة الجزائريين فى حرب « المورة » واستشهاد الأسطول الجزائرى فى معركة « نفارين » .

وكانت الدول جميعاً ، وفى طليعتها فرنسـا ، تعترف باستقلال الدولة الجزائرية ، وتتزاحم فيها حول نيل الحظوة والنفوذ ، وتعين فيها ممثلين من أكبر رجال السلك السياسى ، وتعقد معها المعاهدات دون أى تدخل من استانبول ، أو أى مجرد استشارة . فالقضية كانت تبعية إسمية للخلافة الجامعة ، لا أكثر ولا أقل .

ولطالما أرادت الدول ، وخاصة أسبانيا ، والدانمرك ، وفرنسا ، قهر

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الجزائر ومحقها ، فكان النصر دائماً للجزائريين ، وانكسر الأسبان شر كسرة عرفوها فى تاريخهم أمام أسوار الجزائر مرتين . وتركوا كل سلاحهم ومتاعهم فيها (سنة ١٥٤١ وسنة ١٧٧٥) كما انكسرت عدة حملات فرنسية على السواحل الجزائرية . وكان الأسطول الجزائرى يشمل أكثر من ٢٢٠ سفينة ، يركبها ما يزيد عن الثلاثين ألفاً من البحارة من أبناء البلاد .

كان أسرى الفرنج يعاملون فى قطر الجزائر أحسن معاملة ، ويتمتعون بحريتهم الدينية ، ومنهم الكثير كانوا يعتنقون الإسلام ويدخلون عاملين ضمن الجماعة الجزائرية .

وكانت دولة الجمهورية الجزائريه فى طليعة الدول التى اعترفت بحكومة الثورة الفرنسية الكبرى عام ١٧٨٩ ، بينما كانت أغلب دول العالم تحاربها ، كما كانت من أول الدول التى اعترفت باستقلال الولايات المتحدة الأمريكية . وإذا قارنا بين دول العالم يومئذ ، طيلة قرون ١٦ و١٧ و١٨ رأينا أن البلاد الجزائرية كانت خلال ثلاثمائة سنة (١٥٣٠ — ١٨٣٠) من أحسن بلاد العالم نظاماً ورفاهية وأمناً وعدلا .

كانت وارداتها التجارية واسعة جداً . وكانت صناعاتها المحلية ذات شهرة ذائعة فى أغلب جهات العالم ، وكانت مزارعها غنية منتشرة تفيض على الأمة بالخير والبركات ، فكان تصدير الفواكه والحبوب ، والزيت ، والأصواف ، من أهم نشاط البلاد .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يقولون لنا اليوم مغالطين ، انظروا كيف هو حال الجزائر اليوم ، وانظروا كيف هي كانت قبل ١٥٠ عاماً !

ونقول لهم : بل قارنوا بين حالة القطر الجزائري ، وحالة بقية بلاد العالم ، قبل ١٥٠ عاماً . فأيام كان الجهل والظلم وجبروت الإقطاع وقسمة الناس بين سادة وعبيد يسود بلاد العالم الأوربي ، كان قطر الجزائر يعتبر مثالاً من أبدع أمثلة العدل والحرية والتسامح وحفظ كرامة الإنسان .

ثم نقول لهم : أن قطر الجزائر كان في تلك العصور ملكا لكل أبنائه ، وكانت أرضه متاعاً لمزارعيه . أما اليوم ، وتحت ظل النظام الاستعماري ، فلم يبق شيء من قطر الجزائر بيد بنيه ، واستأثر المستعمرون دونهم ، بالأرض ، وما فوقها ، وما تحتها .

ولقد كان الجزائريون طيلة مدة الجمهورية الجزائرية العثمانية ، يقبارون أتراكا وعرباناً في أعمال الخير ، ووقف الأوقاف الطائلة على المساجد والمدارس والمنشئآت العامة ، وكانت دور العلم عامرة ، وحلقات الدروس غاصة بالطلاب في كل مساجد المدن الكبرى . أما التعليم الابتدائي فكان يلقن في ثلاثة آلاف « كتاب » أو مدرسة ابتدائية .

وقد نبغ في هذا العهد رجال أفذاذ ، تألق أسمهم في كامل بلاد العالم الإسلامي ، من أشهرهم عيسى بن محمد الثعالبي ، ويحيى بن صالح اللمياني صاحب التآليف الشهيرة ، وسعيد المقري ، واحمد بن عمار الجزائري ، وعمر

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

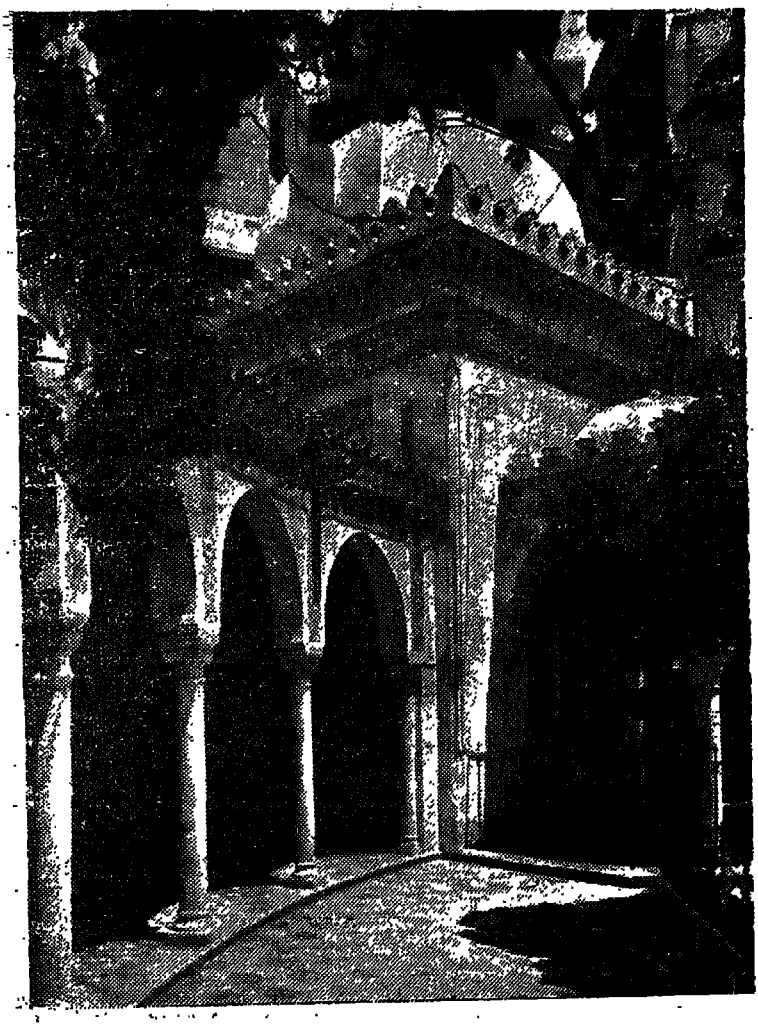

(شـكل ١٣) مسجد محمد باشا بومران

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ابن محمد المنقلاتى ، وطائفة عظيمة من شيوخ الإسلام وعظماء المدرسين الذين أفادوا الأمة بعلمهم وبعملهم .

فالجمهورية الجزائرية التى تألق نجمها ساطعاً خلال ثلاثة قرون ، ولم يكن بها من الجند التركى إلا زهاء ثلاثة آلاف رجل (٣٠٠٠) لا غير، كانت حلقة من تلك السلسلة الاستقلالية الذهبية التى صاغها الجزائريون بجهادهم

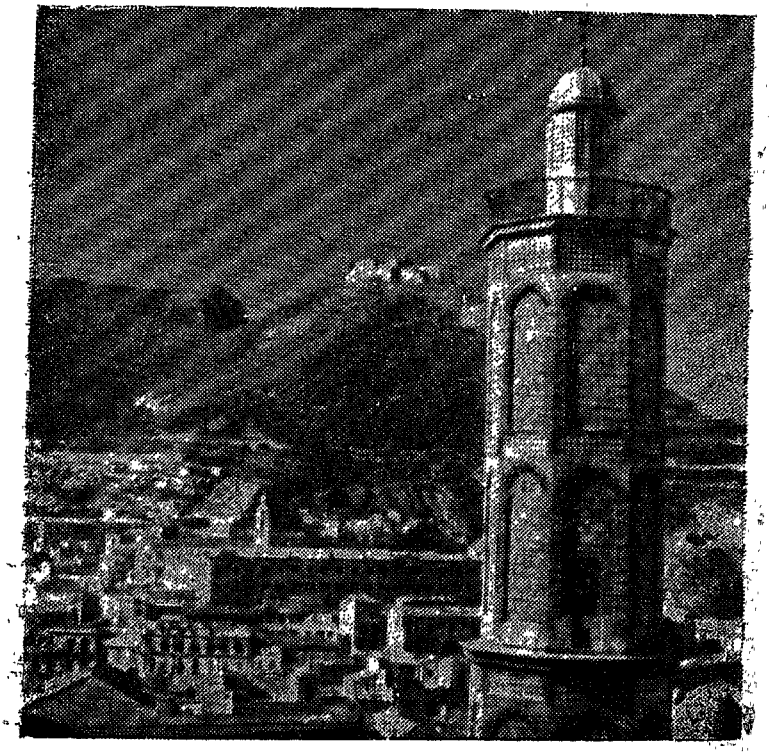

(شكل ١٤) مئذنة مسجد الباشا بوهران

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ودمائهم ومهجهم ، واستمرت من يوم أسسوا دولة بنى رستم ، إلى يوم انهيار مقاومة الأمير عبد الله القادر الهاشمى .

فهل تستطيع فرنسا الاستعمارية الجبارة الطاغية ، أن تمحو بجرة قلم تحت حكم السيف والنار كل هذا التاريخ ، وتحطّم هذه التقاليد المتأهلة منذ عهد يوغورطا وتدعى أن الجزائر ، بحكم الفتح ، جزء من فرنسا ؟ وأن الجزائريين لاحق لهم فى وطن ، ولا فى جنسيته ، ولا فى علم ، إنما هم قوم من الفرنسيين ؟ .

هذا الأفك المبين ، وهذا الإدعاء الظالم ، هو ما قامت الأمة الجزائرية ضده ، منذ ١٢٥ سنة ، ترده خائضة بحراً من دم الشهداء ، مقدمة مواكب من أرواح الضحايا ، فى جهاد اشترك فيه الأجداد ، والآباء ، والأحفاد ، إلى أن ينتهى عار الاحتلال ، وترتفع أعلام الاستقلال ، بواسطة الثورة الكبرى ، وجبهة التحرير الوطنى الجزائرى .

الاحتلال الفرنسى

جاعت فرنسا وأضرت بها المسبغة ، أيام الثورة الفرنسية الكبرى ، وأوصدت دونها انكلترا ودول أوروبا أبواب العالم ، فلم تلق نجدة إنسانية إلا من أرض الجزائر الحرة ، وحكومة الجزائر الجمهورية الحرة فكانت المراكب تترى بين الساحلين ، تحمل لفرنسا من الحبوب ما وقاها شر المجاعة

ولقد اشتركت خزينة الدولة مع بعض التجار — كشركة اليهوديين

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

برخريص ، وبوشناق — فى تموين تلك العمليـة الإنقاذية ، فما كادت الثورة تنجح ويستقر أمر حكومتها ، حتى كانت فرنسا مدينة للخزينة الجزائرية بمقدار ٢,٥٠٠,٠٠٠ من الفرنـكات الذهبية .

وتلـكأت فرنسا فى الدفع . وألحت الحـكومة الجزائرية فى المطالبة . وسقطت حـكومة الجمهورية الفرنسيـة الأولى ، وانتهى أمر الحـكم الأمبراطورى ، وتسلم السلطة الملك الطاغية شارل العاشر ، وفرنسا تمتنع عن الدفع ، والديوان يوالى الاحتجاج والإلحاح .

وكان شارل العاشر يحكم حكماً استبدادياً لا يتحمله الشعب الفرنسى ، وكانت رياح الثورة تهب خفيفة تنذر بوقوع كارثة . فأراد الملك أن يباشر حرباً أجنبية ضد دولة مسلمة ، ليستدر عطف رجال الـكنيسة من جهة ، وليتخلص من عدد كبير من العاطلين المشاغبين من جهة أخرى ، فأرسل — كما يؤكد أعظم مؤرخى الفرنسيين هنرى قارو — أمراً لقنصل فرنسا بالجزائر ، بأن يغتنم فرصة مغيب الأسطول الجزائرى فى نفارين ، لخلق حادث يبرر غزو الجزائر والاستيلاء عليها .

ففى يوم العيـد ، ذهب القنصل لتهنئة الداى حسين باشا ، فى قصر القصباء وبعد تبادل التحية وعبارات التهنئة ، قال الباشا : ولماذا لم أتلق إلى الآن جوابا من الملك عن رسالتى المتعلقة بتصفية حساب الدين ؟ فتعمد القنصل دوفال العجرفة كما أمر ، وقال : وهل تظن أن جلالة ملك فرنسا يتنازل لجواب داى الجزائر ؟ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

(شـكل ١٥) ضربة المروحة !

فوجم الجميع ، وفهموا أن الحادث متعمد ، ووقف الباشا وسط الديوان يرد الإهانة المقصودة ، وقال للقنصل : أخرج يا ابن الكلب ! وأشار بمروحة من الريش كان يحملها ، إلى الباب ، فادعى القنصل أن ريش المروحة قد لمس وجهه ، وخرج صاخبا محتجاً ، وعلم قناصل الدول كافة أن « الحادث » قد وقع ، وأن « الخاتمة » قريبة .

وقف شارل العاشر ملك فرنسا يقول فى خطاب العرش يوم ٢ مارس سنة ١٨٣٠ مانصه : أن العمل الذى سأقوم به لترضية شرف فرنسا ، سيكون باعانة العلى القدير ، لفائدة المسيحية جمعاء .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وكان إذاك قد هيأ أسطولا ضخماً يشمل ١٠٣ من السفن تحمل نحو الثلاثة آلاف مدفع ، و٣٤٠٠٠ مقاتل ، مع ٣٨٣ سفينة لنقل المؤن والذخيرة وعزم على اتخاذ قاعدة أعماله ضد الدولة الجزائرية ، شبه جزيرة سيدى فرج على نحو ٢٠ كيلو متراً غربى الجزائر ، حسب الخطة التى كان هيأها الجاسوس الفرنسى برتان « أيام الأمبراطور نابليون » .

كان الديوان على علم بما يهيؤه الفرنسيون . وخلافاً للمعتقد الشائع ، فان الجزائريين قد استعدوا للمقاومة ، وهيأوا براجمها ، وقرروا إخلاء شبه الجزيرة التى كانوا يعلمون أن الفرنسيين سينزلون بها ، ثم مبادرتهم بالهجوم أثر ذلك ، للرمى بهم إلى البحر ، وللاستحواذ على كل ما بأيديهم .

وأخذت جموع المجاهدين الجزائريين تحتل مراكزها ، حوالى شبه الجزيرة ، ثم نزل الجند الفرنسى بقوته وعتاده يوم ١٣ يونيو سنة ١٨٣٠ .

قام الجند الجزائرى بالهجوم فى المعركة الحاسمة يوم ١٩ ، وكان هجوماً عنيفاً موفقاً ، زلزل أقدام الفرنسيين ، وألحق بهم خسارة عظيمة ، وكاد يرمى بهم إلى البحر ، لولا فرقة عسكرية فرنسية صغيرة بقيت وراء الصفوف وخافت أن يقضى عليها ، فصعدت ربوة وأخذت تستغيث وتشير لمعظم الجيش ، فظن أحد قادة الجيش الجزائرى أن الفرنسيين المذكورين قد عملوا حوله حركة التفاف قصد قطع خط الرجعة عنه ، فتقهقر كيلا يحدق به ، وكانت فى تقهقره القاضية ، لأن القيادة الفرنسية أعادت الكرة ، وأرجعت الجزائريين إلى مركزهم الأصلى ، واغتنمت فرصة الاضطراب

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الذى وقع فى الصفوف للاستيلاء على معسكر « مصطفى ولى » فكانت هذه المعركة من أكبر المعارك الحاسمة فى التاريخ . وتلك الأيام نداولها بين الناس .

كانت نتيجة هذه الهزيمة ، أن اضطرت مدينة الجزائر للاستسلام فدخلها جنود فرنسا صبيحة يوم ٥ يوليو سنة ١٨٣٠ ، وكان يوماً من أسود أيام التاريخ الجزائرى . ولم يحترم الفرنسيون عهدهم باحترام الأشخاص والحريات ، فطفقوا ينهبون ويسلبون ، وينتهكون الحرمات ، واشترك فى الاختلاس واللصوصية كبراؤهم وصغارهم . فسجلوا على فرنسا صفحة عار لا تمحى أبد الدهر .

لكن ملك فرنسا الطاغية لم يفرح بانتصاره . ففى نفس شهر يوليو هذا ثار الشعب ضده ، وأسقطه ، فسار إلى المنفى ذليلا ، وأخذ الفرنسيون يتوغلون فى سوادمدينة الجزائر الذى كان عبارة عن حديقة غناء ، ينهبون ويسرقون وينتهكون الحرمات .

ولايزال الجزائريون يعتبرون يوم ٥ يوليو يوم حداد عام ، إلى أن كان يوم ٥ يوليو سنة ١٩٥٦ ، فأعلنوفى سائر جهات القطر الجزائرى الاعتصاب العام ، ولم يبق من المسلمين أحد لم يشارك فى هذا الحداد الوطنى ، رغم إنذار السلطة الفرنسية وتهديدها بانزال صارم العقاب بالمضربين

نكبة شرقية عامة

ومن الغلط القول بأن احتلال فرنسا للجزائر كان نكبة على شعب

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أثر وحـده ، بل أنه كان نـكبة على الشرق بأسره ، وعلى الحرية قدس معانيها ، وعلى القارتين الافريقية والأسوية على السواء :

إن احتلال فرنسا للجزائر كان أول ثغرة فتحها الاستعمار فى بلاد وبة بأقطار البحر المتوسط ، ولم تستطع الدول العربية والإسلامية أن سا كنا أمام ذلك الحادث العظيم ، فالدولة العثمانية ، صاحبة السيادة مية على قطر الجزائر ، كانت « الرجل المريض » وكانت الحروب اكة التى يشنها عليها جيرانها الروسيون قد أنهـكت قواها . ثم أن كة نافارين التى حطم فيها الانـكليز والفرنسيون والروس الأسطول مانى ، والجزائرى ، والمصرى كانت قد أصابت الدولة فى الصميم ، لخت عنها بلاد اليونان ، وفتحت بصفة رسمية وراثتها .

أما البلاد المصرية فـكانت تجرب يومئذ مغامرات محمد على ، وكانت استها تجامل الدولة الفرنسية إلى حد بعيد ، نـكاية بالدولة الانـكليزية ، جريا وراء التوسع والاستقلال .

وأما تونس والمغرب الأقصى ، فـكان ضعف الدولتين الحسينية لشريفية لا يكاد يمـكنهما من حفظ الامن الداخلى ، فضلا عن التدخل ائدة الجزائر ومد يد المساعدة للمناضلين الجزائريين . أما دول أوربا فقد كتفى بعضها بالاحتجاج وإثارة العراقيل فى وجه فرنسا ، بصفة فاترة ، نـكلترا ، والتزم بعضها الآخر خطة السكوت ، بينما أبدى معظمها تهاجه بهذا النصر الأوربى المسيحى فى بلاد الاسلام .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فماذا كانت نتيجة كل ذلك يا ترى ؟

كانت النتيجة أن فرنسا أخذت تكيد لتونس ، وتثير فيها القلاقل إلى أن تمكنت من احتلالها عام ١٨٨١ .

كانت النتيجة أن الاتفاق الذى عقد بين فرنسا وانكلترا ، والذى سمح باحتلال تونس ، قد جعل الانكليز يستبدون بأمر مصر ، ويتآمرون على استقلالها ، ويدمرون جيشها فى التل الكبير ، ويحتلونها فعلا سنة ١٨٨٢

كانت النتيجة توغل فرنسا فى صحراء افريقيا ، وتحطيمها للممالك الاسلامية المستقلة فيها ، ومحاولة احتلال جنوب وادى النيل (حادث فاشودا) .

كانت النتيجة ، استيلاء إيطاليا بصفة فظيعة وحشية على قطرى طرابلس وبرقة ، ومحاولتها محق العروبة والإسلام والوطنية فيها .

وكانت النتيجة أخيراً ، ضياع كامل القسم الأوربى من السلطنة العثمانية ، فى حرب البلقان ، ثم انهيار هذه الدولة نهائياً ، أثر الحرب العامة الأولى ، وسقوط العراق تحت انتداب الانكليز ، وسوريا ولبنان تحت انتداب فرنسا ، ووقوع فلسطين العزيزة الغالية فى النكبة التى أدت إلى استشهادها المؤقت .

فجذور هذا السرطان الاستعمارى الفظيع قد امتدت كلها من مدينة الجزائر ، أثر ذلك اليوم الأسود التعس ، يوم ٥ يوليو سنة ١٨٣٠ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

روح النضال

فهل استكانت الأمة الجزائرية لما أصابها على يد الاستعمار فى تلك المعركة الهوجاء ، وهل استسلمت لسيف جلاديها ؟ .

كلا ! أن تاريخ الأمة الجزائرية ، كان بعد ذلك اليوم النحس ، تاريخ بطولة لم يشهد العالم — بحق — لها مثيلا . وكان تاريخ كفاح طويل ، وتضحية مستمرة ، ومقاومة عنيفة لم تفتر ساعة من نهار ، فكانت أحياناً حربية قاسية ، ذات وقائع وأهوال ، ودماء ودمار ونار ، وكانت سياسية أحياناً أخرى . واستمر كفاح الجزائر الأبية كذلك ١٢٥ عاماً ، يحاول الاستعمار محاولات يائسة تحطيمها والقضاء عليها ، ويصيبها كل يوم بضربة جديدة ، ويبطش بها كل ليلة بطشة جديدة ، دون أن يقضى على روحها الأبية ، ودون أن ينال من كيانها العربى الإسلامى الشريف أى منال ، إلى أن طفح الكيل ، ودقت ساعة القدر ، وهبت رياح التحرير الوقح على العالم ، فحزمت الأمة الجزائرية أمرها وقامت إلى ثورة جبارة ، لاتزال تدهش الدنيا بوقائعها ، ولا تزال تسجل بدمائها صفحات الروعة والجلال ، فى ميدان البطولة ، فوق الأرض الجزائرية الكريمة التى عجنت منذ قديم الأجيال ، بدماء الأبطال ، فى ميادين الكفاح والنضال .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المقاومة فى الشرق . أحمد باشا

ما كاد ينتهى أمر « الديوان » بمدينة الجزائر ويساق الباشا وكبراء الجند إلى المنفى ، حتى هبت الأمة الجزائرية على بكرة أبيها ، تنظم المقاومة ، وتنادى بالجهاد ، وتقيم فى كل جهة من جبالها وسهولها معاقل للنزال .

وقد اكتست المقاومة الأولى شكلين : شكل المقاومة الرسمية الحكومية وشكل المقاومة الشعبية .

أما المقاومة الحكومية ، فقد تولى زمام أمرها الحاج أحمد ، باى قسنطينة ، الذى بايعته الناحية الشرقية « باشا » ، والتف حوله رجال الأمة من عرب ومن بقايا أتراك ، وكانت له مع الجند الفرنسى وقائع مشرفة . وطالت الحرب بين الأمة وبين الغاصبين فى تلك الجهات الشرقية والجنوبية ، وذاق الفرنسيون من بأس الأمة ومن شدة مراسها ، ما سجله تاريخهم ، وما لا يزالون يذكرونه إلى اليوم ، لكن القوة والكثرة تغلبتا على المقاومة الشعبية التى لم تتلق أى مدد خارجى ، وكان احتلال لامورسيار لمدينة قسطنطينة ، سنة ١٨٣٨ ، انذاراً بنهاية حركة المقاومة المنظمة ، فانتهى أمرها ظاهراً ، وبقيت كالنار تومض تحت الرماد ، وقد سجلت مدينة قسطنطينة بدفاعها المجيد صفحة عالية من صفحات البطولة

(شكل ١٦) الفرنسيون يحتلون قسطنطينة داراً فداراً وحارة فحارة

الخالدة ، إذ اضطر الفرنسيون لاحتلالها حارة فحارة وداراً فداراً ، وتكبد الجانبان فى هذه الملحمة خسائر كبيرة جداً .

المقاومة فى الغرب : الأمير عبد القادر

إلا أن أروع مثل من مثل المقاومة الشعبية قد ضربه أهل الناحيتين الوسطى والغربية من قطر الجزائر ، إذ لم تكن هنالك سلطة تقليدية ، ولا بقايا نظام إدارى ، بل كان كل شىء جديداً ، وكان كل شىء مبتكرا .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ففى سنة ١٨٣٢ ، جمع وجوه القوم ورؤساء العرب أمرهم فى مؤتمر عقدوه بمسجد مدينة معسكر ، وبايعوا بالإمارة شابا فى الرابعة والعشرين من عمره ، عرف بينهم بالشهامة وقوة الشكيمة ، والرأى الحصيف ، هو الأمير عبد القادر ابن الشيخ محيي الدين الهاشمى ، على أن يؤسس فيهم دولة إسلامية عربية ، تصون الأمن وتوطد العدل داخل البلاد ، وتحارب المعتدى الفرنسى ، فتصده عن هاتيك الأقطار أولا ، ثم ترمى به خارج البلاد أخيراً .

وفتح التاريخ يومئذ صفحة من أمجـــد صفحات البطولة فوق أديم الأرض الجزائرية . صفحة سجلتها أيدى الشهداء مدى ١٧ عاما ، وتترنم بذكرها الأجيال أبد الآبدين .

وأن المؤرخ المنصف ليقف موقف الحيرة والذهول أمام هذه العبقرية الفذة ، التى جعلت شابا فى مقتبل العمر ، عديم التجربة ، ينظم دولة فيحسن تنظيمها ، ويدون دواوينها ، ويضبط أمورها ، ويسك نقودها ، ويربط لها علاقات متينة مع الخارج ، وينشر دعايتها ، يكتسب لها الأنصار ، ثم هو إلى جانب ذلك ، ينشىء جيشاً نظامياً ، على أحدث طراز ، وجيشاً من المتطوعين الفدائيين ، ويرتب أمور ذلك الجيش بحكمة القائد المدرب المدره ، ويسلحه فيحسن تسليحه ، ثم يحسن القيادة الحربية إلى جانب ذلك ، كما أحسن القيادة المدنية ، فيسوق جيشه فى كل الميادين ، وينزل بالأعداء ضربات فتاكة ، ويتحمل ضربات الأعداء بصبر وجلد ، ولقد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

جهزت فرنسا ضده أعظم قواها ، ورمته بأكبر قادتها العسكريين ، ولولا تفوق عظيم فى العدد وتفوق عظيم فى السلاح ، لما نالت منه منالا . حقا والله أنها لمعجزة من معجزات التاريخ . ولقد قلت يوماً أثناء خطاب : إن كانت النبوءة بالمعجزات ، فشعب الجزائر ولاشك نبي الأمم !

ولقد تخللت فترة الحرب عدة معاهدات عقدتها فرنسا مع الأمير ، واعترفت له فيها بالاستقلال والسلطة على البلاد التى نصب فيها دولته ، لكنها كانت معاهدات غش وخداع ، لا تعقدها إلا متى رأت الخطر ، وأرادت أن تستعد لضربة قاسية . أما هو فكان يعقد تلك المعاهدات ، ليستريح قليلا وليستعد لتسديد الضربات ولتلقيها .

ففى سنة ١٨٤٠ اشتعلت نيران المعارك الكبرى ، قاسية فظيعة ، فتاكة — واستعمل فيها الفرنسيون أبشع وأشنع مايستعمله جند مستعمر فى بلاد عدوة مستعمرة : إفناء جماعى ، وإتلاف المدن والقرى ، وحرق المزارع والغابات ، وانتهاك الحرمات بصفة يخجل القلم عن ذكرها ، ولصوصية ونهب وسلب لا تليق إلا بوحوش بنى آدم لا بالمتمدينين منهم .

واستمرت الحرب على هذه الحالة إلى أن مات من الأمة أكثر من نصفها . وأراد سلطان المغرب مولاى عبد الرحمن الاستجابة للشعب الجزائرى ، فأعلن الحرب على فرنسا ، وأرسل جندا لإعانة الأمير ، لكن الفرنسيين دحروا ذلك الجند فى معركة واحدة — معركة يسلى — وضربوا بالقنابل بعض مدن المغرب . فاضطر السلطان لعقد الصلح ، وتعهد بعدم إعانة الجزائريين .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

(شـكل ١٧) الأمير عبد القادر الهاشمى

ووقع ما لم يكن بد من وقوعه ، فأمام قوة الجند الذى وضعت فيه

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فرنسا كل إمكانياتها ، وأمام الفظائع والأهوال ، وإحراق القبائل العديدة أحياء بواسطة النيران ، وأمام الفراغ العظيم الذى حصل فى صفوف الأمة ، لم يسع الأمير عبد القادر إلا الاستسلام فى ٢٣ ديسمبر سنة ١٨٤٧ . فسيق مع أهله وذويه ووجوه دولته أسيراً ، وبقى خمسة أعوام بفرنسا ، إلى أن أفرج عنه وسير به إلى بلاد الشام ، حيث استقر ، وترك هو ووجوه قومه خلفا كثيرا .

على أن المقاومة لم تنته يومئذ فى بلاد الجزائر ، إنما هى انتهت بالصفة المنظمة فحسب فكانت المقاومات المحلية تترى ، من جبال الشمال إلى رمال الصحراء ، وما احتل الفرنسيون مكانا فى أرض الجزائر إلا بعد أن قدموا ثمنه من لحم ودم جنودهم ، وبعد أن سقى المجاهدون الأبرار أرضه الطاهرة بدمائهم الزكية الغزيرة .

فظائع وأهوال وموبقات

إن ذكر التفاصيل عن فظائع الحرب الإبادية التى باشرتها فرنسا بصفة وحشية فى قطر الجزائر ، لا يتفق مع صفة الإيجاز التى تعمدناها فى هذا الكتاب ، فلسنا بذاكرين — على سبيل المثال — إلا قليلا جدا من الوثائق والشهادات التى ذكرها نفس الفرنسيين ، لكى يرى القارىء «عينة» من الطريقة التى أراد بها الاستعمار الفرنسى إرضاخ القطر الجزائرى ، والسير به فى طريق الابادة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يقول المؤرخ كريستيان فى كتابه « أفريقيا الفرنسية » :

« تلقى الجند أمرا من القائد العام الجنرال روفيقو ، بالخروج من مدينة الجزائر ليلة ١٦ ابريل سنة ١٨٣٢ ، ففاجأ قبيلة العوفية عند الفجر وهى نائمه تحت خيامها ، وأمعن فى ذبح أولئك المساكين الذين لم يستطع أى واحد منهم الدفاع عن نفسه ، وهكذا وقع قتل كل نفس حية فى القبيلة ، دون أى تمييز بين جنس وسن . وعند الرجوع من هذه الحملة المخجلة (كذا بالأصل) كان الفرسان الفرنسيون يحملون رؤوس القتلى على أسنة رماحهم

ويقول الجنرال شانقارنييي : لقد كانت التسلية الوحيدة التى أستطيع أن أسمح بها للجند أثناء فصل الشتاء ، هى السماح لهم بغزو القبائل المعادية التى تسكن فيما بين وادى الحراش وبورقيقه . ويقول المؤرخ دبوزايد عن ذلك مانصه : أما الغنيمة من الحيوان فقد بيعت إلى ممثل قنصلية الداعراك . وأما بقية الغنائم الصامته فقد عرضت للبيع فى سوق باب عزون ، وكان من بين الغنائم أساور نساء وهى لاتزال فى أيديهن المقطوعة ، وأقراط نساء لاتزال تلتصق بها قطع من آذانهن . ثم وزع ثمن كل ذلك على السفاكين من رجال الطابور الفرنسى . وفى ذلك اليوم أصدرت السلطه أمرها لسكان الجزائر المسلمين ، بأن يضيئوا ليلا حوانيتهم ، إظهارا لسرورهم بذلك الانتصار (١) .

---

(١) فى كتابى « محمد عثمان باشا » طبع الجزائر سنة ١٩٣٩ ، عدة قطع معربة من هذه الكتب ، فليراجعها من أراد التوسع فى الموضوع .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أما حديث حريق الكهف الذى آوت إليه قبيلة بأسرها ، سنة ١٨٤٥ ، فارة أمام الجند الفرنسى ، فقد صار مضرب المثل فى الخسة والدناءة والوحشية ، إذ ما كاد الجند يكتشف ذلك الكهف الفسيح ، حتى وضع أمامه وعلى مداخله أكواما من الحطب والقش ، ثم أوقد عليها النيران ، وأستمر يغذى تلك النار كامل الليلة . فما جاء الصباح ، ودخل الجند الكهف ، حتى كانت جثث ٧٨٠ من الضحايا البريئة بين رجال ونساء وأطفال ، مفككة الأوصال ممزقة الاشلاء ، تحت أقدام الثيران والحيوانات التى دفعتها غريزتها نحو الباب ، فداست كل شىء ، ثم لقيت حتفها .

(شكل ١٨) غار الجريعة بالظهرة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ومن أفظع ماشوهد ، داخل الكهف ، رجل أسلم الروح وهو ممسك بقرن أحد الثيران دفاعا عن أمرأته وصبيه ، وقد مات الرجل والمرأة والصبي والثور وهم على ذلك الوضع .

ولقد قال أحد قوادهم : سانت أرنو ، فى كتاب مطبوع يعتبر ديوان الفظائع والفضائح ، : لقد كنت أستطيع مع جنودى اقتفاء أثر القائد العام دون أن أضل الطريق . لأننى كنت أسير على ضوء الحرائق التى يوقدها قبلى فى القرى والمداشر والدواوير العربية التى كان يمر بها .

أننى ماذكرت إلا الأمر الوجيز والنزر القليل . وفى كتب الفرنسيين التى تباهوا بطبعها ونشرها ، فيما بين سنتى ١٨٣١ — ١٨٥٠ — مايسجل أبشع صفحات الخزى والعار ، والغدر والخيانة ، على هذا الاستعمار الفظيع الذى سلطته فرنسا الظالمة على القطر الجزائرى ، والذى لايعرف العالم له مثيلا .

ولاختمن هذه الصفحة البشعة القذرة من تاريخ الاحتلال الفرنسى ؛ بهذه الجملة المقتطفة من تقرير لجنة البحث الرسمية ، التى بعث بها ملك فرنسا لاطلاع البرلمان على حقيقة ما وقع فى قطر الجزائر من مظالم :

« اننا قد ضممنا إلى ممتلكات الدولة ، سائر عقارات الأوقاف الاسلامية ، ووضعنا تحت الحجز ممتلكات طائفة من السكان تعهدنا لها باحترام أشخاصها وممتلكاتها . وبدأنا أعمالنا فى ميدان السلطة بمظلمة ، إلا وهى أرغام الناس على المشاركة فى قرض اجبارى (١٠٠٠٠٠ فرنك) . واستولينا على ممتلكات خاصة ، دون أن ندفع مقابلها أى تعويض بل قد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أجبرنا فى كثير من الأحايين أصحاب الديار على دفع نفقات تهديمها ، كما أجبرناهم على دفع نفقات تهديم مسجد[1] . ولقد اعتدينا دون أى مراعاة ، على حرمة الأضرحة ، والزوايا ، والمساجد ، وعلى المنازل الخاصة التى تعتبر مقدسة عند المسلمين .

« لقد ذبحنا جماعة من الناس كانت تحمل جوازات مرور ممهرة بختمنا ، وقد أبدنا فى مذابح عامة ، لمجرد شك ، طوائف عديدة من السكان ، تبين فيما بعد أنها كانت بريئة مما اتهمناها به . ولقد حاكمنا جماعة من وجوه القوم واشراف الأمة ورجال الصلاح فيها ، ما كان لهم من ذنب إلا أنهم تقدموا أمام بطشنا ، يسألوننا الشفقة والرحمة بأبناء البلاد الساكين ؛ فلقد وجدنا حكاماً منا يصدرون أحكاماً باعدامهم ، ووجدنا جلادين منا ، يقومون بتنفيذ تلك الأحكام . أننا قد فقنا فى أعمال الوحشية ، هؤلاء المتوحشين الذين جئنا لتمدينهم . (لجنة البحث نفامبر ديسامبر ١٨٣٣) .

وكل هذا وقع قبل فظائع وفضائح السنوات الحمراء : ١٨٤٠ وما يليها... قال أحد نواب فرنسا أثناء مناقشة هذا التقرير : أننا قد ارتكبنا فى ثلاثة أشهر ، من الفظائع وأعمال التنكيل ، أكثر مما نسب للاتراك خلال ثلاثمائة سنة (سجل مذاكرات مجلس الأمة الفرنسى) .

وكنى . أننى كانسان ، تمتريني حمرة الخجل ، وأنا أسطر وصف هذه الفظائع والأهوال . لكننى كوطنى ، وكعربى ، وكمسلم ، أشعر وأنا

---

(١) هو مسجد « السيدة » وكان من بدائع الفن المعمارى الاسلامى فى مدينة الجزائر .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أكتبها ، أو أرويها ، بثورة الدم فى عروقى حتى لتكاد تنفجر ، وبتهيج أعصابى ، حتى لتكاد تتمزق ، وبغشاوة حمراء على عينى ، حتى لأكاد أرى كل شىء أمامى دما وناراً .

ولولا الوقار العلمى الذى يجب أن يلازم هذا العرض حتى نهايته ، ولولا تعهدى بأن يكون هذا الكتاب كتاباً تصويرياً تحقيقياً ، لحالة الشعب الجزائرى ، والوطن الجزائرى ، دون أن أسير مع التأثر الشخصى ، والانفعال النفسى ، أو العاطفة ، لكان هذا الكتاب مكتوباً بلغة أخرى ، ولربما احترقت صفحاته بمداد هو السم الزعاف ، وتحت أنفاس هى اللهب المتصاعدة .

وبعد ، فكل ماوقع فى القطر الجزائرى بعد ذلك فى ميادين الحكم ، والمجتمع ، والاقتصاد ، والتشريع ، إنما هو محاولة مستمرة ، آخذ بعضها برقاب بعض ، لتحطيم الأمة الجزائرية ، وتقويض أركانها ، وتشتيت شملها وقتل أحساسها ، وجعلها أمة من السائمة ، أو أقل من السائمة ، لادين لها ، ولا لغة ، ولا جنسية ولا رابطة ، ولا أخلاق ، ولا علم ، ولا عمل : أمة من العبيد فى يد شر النخاسين .

فإن حمل البعض قولى على الغلو ، فليقرأ الصفحات التالية ، ثم لينظر هل تحملت أمة من الأمم ، مثل هذه المصائب ووسائل التحطيم والقتل ، وعندئذ يعترف من اتهمنى بالغلو ، أننى على العكس من ذلك ، قد عجزت عن تصوير نفس الحقيقة كما هى .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إنما الذين صورا الحقيقه كما يجب ، وقدموها للعالم ، عارية ، فهم أباة الظيم ، أسود العرين ، الذين تقدموا المنكر الاستعمارى العظيم ، يغيرونه بأيديهم الجبارة التى ستدك صروح هذا الاستعمار الآثم الخبيث ،وسيقيمون على انقاضه فى قطر الجزائر ، حياة العزة والكرامة الإنسانية ، حياة الحرية والاستقلال :

هم رجال الثورة الجزائرية الكبرى .

فلهم المجد الأبدى ، ولهم حياة الخالدين .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

القسم الرابع

تحطيم أمة

— ١ —

الحكومة — الإدارة — المجالس

استقرار الفرنسيين

ما كادت تستقر أقدام الجند الفرنسى ببعض جهات البلاد الجزائرية ، رغم المقاومات والحروب المستمرة ، حتى أصبحت سياسة حكومة فرنسا تتبلور حول غايتين :

الأولى : أقطاع الأرض للفرنسيين والايتيان بأكبر عدد منهم إلى البلاد ، حتى تمحى صبغتها العربية الإسلامية ، وتغدو أرضا لاتينية مسيحية

والثانية حكم البلاد حكما مباشرا ، لادخل لأهل البلاد فيه ، أى دخل. فبلاد الجزائر كانت تحكم بادىء ذى بدء بواسطة قادة جيش الاحتلال ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقد اشتهر منهم الكثير بأعمال التنكيل والمذابح الجماعية ، وافناء المسلمين بالجملة ، حتى تخلو الأرض لسا كنيها الجدد ، وكان شعار المارشال بيجو ، السفاح الشهير : إحتلال الجزائر بالسيف وبالمحراث ؛ السيف فى رقاب العرب ، والمحراث بيد المستعمر الفرنسى .

وكانت الأرض توزع على حثالات الفرنسيين العاطلين ، فأنشأت الإدارة أول الأمر ٤٢ مركزا استعماريا ، وزعتها مجانا على عشرين ألفا من الباريسيين ، نقلوا بنفقة الحكومة الى أرض الجزائر ، ووزعت عليهم الأرض التى ذهب أهلها شهداء الإرهاب بين السيف والنار .

وفى سنة ١٨٤٨ أعلن مجلس النواب الفرنسى ، أن أرض الجزائر قطعة « طبيعية » من فرنسا ، وأنها جزء من أم الوطن ، وأن الفرنسيين ينتخبون نائبين عنهم للمجالس القومية الفرنسية بباريس — كأن لاوجود للمسلمين .

أما التقسيم الإدارى ، فقد وضعت أسسه سنة ١٨٤٥ ، حيث قسمت الأرض إلى مناطق الشمال ، التى يحكمها الفرنسيون المدنيون ، وبلاد الجنوب التى يحكمها العسكريون الفرنسيون .

وإذ وجدت السلطة أن عدد المستعمرين الفرنسيين لم ينم بالدرجة المطلوبة ، نشرت دعاية واسعة بين فقراء ومعدمى الأسبان ، والطليان ، كيفدوا نحو البلاد الجزائرية ، حيث الأرض ، والقروض ، والثروة والغنى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فجاء هؤلاء الملقون ، حفاة يحملون الأسمال البالية ، وكثر عددهم ونما واقطعوا صالح الأرض ، ومنحوا واسع الأموال ، ثم نالوا الجنسية الفرنسية واندمجوا بالفرنسيين الأولين ، فكونوا العنصر المستعمر ، الذى أصبح منذ تلك الساعة هو الحاكم بأمره فى قطر الجزائر ، يستأثر بها دون أهلها المسلمين ، وأصبح بواسطة ثروته ونفوذه يتحكم فى ضمائر الحكومات الفرنسية .

ووضع نظام الجزائر الجارى به العمل الآن سنة ١٨٦٩ ، فهو يجعل على رأس البلاد موظفاً ساميا فرنسيا يدعى « الوالى العام » الذى يشرف على إدارة فرنسية بحتة ، تحكم من أجل الإستعمار ، ولفائدة الإستعمار .

ثم تدفق سيل جديد من المستعمرين أثر الحرب التى نكبت فيها فرنسا شر نكبة ، أمام الألمان سنة ١٨٧١ فاستقرت ببلادنا جموع عظيمة من الالزاسيين ، اقطعوا جيد الأرض ، ومنحوا الأموال الغزيرة ، واشتدت حركة الرمى بالمسلمين إلى الجنوب وبلاد النجود ، دون شفقة أو رحمة ونزعت عنهم بقايا أرضهم الفلاحية الصالحة .

وفى سنة ١٨٨١ ، أصدرت فرنسا قانون الجنسية ، يضفى الجنسية الفرنسية على أبناء كل الأجانب الذين يولدون فى الأرض الجزائرية . فإذا أضفنا إلى ذلك مجموع اليهود الذين زجت بهم فى الجنسية الفرنسية سنة ١٨٧١ ، رأينا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كيف تمكن الفرنسيون من وضع مليون أجنبي فوق أديم الأرض الجزائرية وتمكينهم من كل خيراتها ومرافقها وأرضها وأموالها .

وفي مفتتح القرن العشرين ، سنة ١٩٠١ ، نال الاستعماريون في قطر الجزائر نوعا من الاستقلال المالي ، بواسطة الاستعمار ، ولفائدة الاستعمار ؛ واشتد الكرب بالمسلمين ، وأشرفوا على الهلاك . وكانت لهم قوانين زاجرة ، سنت للبطش بهم ، ومنع كل حق عنهم ، تدعى « قوانين المدجنين » الأنديجينا ، التي لا يعرف العالم لها مثيلا .

واستمر زحف السيل العرم من المستعمرين . ففيما بين سنتي ١٩٠٤ — ١٩٢٧ ، وزعت عليهم (٢٣٧٠٠٠) هكتار من جيد الأرض ، مع منح مالية عظيمة ، وأمضوا كلهم التزاما بأنهم إن اضطروا إلى بيع تلك الأرض ، فلن يبيعوها إلا لمستعمر ليس إلا ، ولا تباع لمسلم أبدا .

الحكومة

جربت حكومة باريس عدة أنواع من الحكم المباشر في أرض الجزائر ، إلا أنها تتعمد ، عند كل تجربة جديدة ، الأمعان في ابعاد العنصر الإسلامي عن الحكم ، ووضعه موضع المتشرد أمام أصحاب السلطان .

فالوالي العام الفرنسي ، الذي يعينه مجلس الوزراء ، يمثل السلطة الفرنسية ، ويتلقى الأوامر من وزير الداخلية ، لكنه لا ينفذ إلا ما يرضى عنه الاستعمار ، وما يفيد الاستعمار . فإذا بدا من أحد الولاة العامين ما يدل

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

على الاستقلال برأى ، أو على مخالفته لأى مصلحة استعمارية ، ثار عليه المستعمرون ، وواطأتهم حكومة باريس ، فاستبدلت به غيره . لهاذا فالوالى العام بقطر الجزائر ، هو خادم ركاب الاستعمار ، منفذ لأرادة المستعمرين .

يرأس الوالى العام « الإدارات » الحكومية التى تشملها الولاية العامة ، وهى : الداخلية ، المالية ، البريد ، الأشغال العامة ، المواصلات ، الفلاحة والتجارة ، العلوم .

وكل مصلحة من هذه المصالح ، يتولى أمرها : المدير العام ، وهو موظف فرنسى ، ويباشر العمل فيها مئات من الموظفين ، كبار وصغار ، كلهم من الفرنسيين . فالملا بين التسعة من المسلمين الذين يقطنون أرض الجزائر ، لاوجود لهم أصلا ، مطلقا ، داخل جدران هذه العمارة العملاقة التى يدعوها الجزائريون : « مغارة على بابا » وقـــد اعترف الفرنسيون أخيراً بأنه لايوجد من بين خمسة آلاف موظف ، إلا ثمانية رجال من المسلمين . فالولاية العامة التى تتولى إدارة القطر الجزائرى ، وتحكمه حكما قاسيا ، انما هى إدارة فرنسية ، عنصرية ، استعمارية ، شعارها : كل شىء للفرنسيين ، ولا شىء للمسلمين !

العمالات

كانت بلاد الجزائر مقسمة ، إلى يوم الثورة الكبرى ، إلى عمالات « مقاطعات » فرنسية ، هى : قسطنطينة ، والجزائر ، ووهران . أما البلاد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الجنوبية ، وهى الصحراء الواقعة تحت جبال الأطلس الصحراوى ، فيحكمها العسكريون حكماً عرفياً .

والعامل أو « البريفى » فرنسى ، يتبع رأساً وزير الداخلية ببارىس . وللوالى العام عليه حق الإشراف ليس إلا . والعمالة عبارة عن إدارة محلية واسعة النطاق ، شديدة الحكم صارمة التنفيذ ، للاستعمار فيها سلطة تعادل سلطته ونفوذه فى الولاية العامة . فالأوربى يعتبر فى دار العمالة صاحب البيت كل من فيها يخدم ركابه . أما المسلم ، فأذل فيها من اليتيم على مائدة اللئيم .

وفى كل إدارة عمالة ، طائفة عظيمة من الموظفين ، الذين تغدق عليهم الأموال جزافاً ، لكن لا وجود لمسلم بينهم . والإدارة هنا ، كما فى الولاية العامة ، فرنسية ، عنصرية ، لا تعمل إلا لفائدة المستعمر .

البلديات

وتنحدر درجات السلطة فى القطر الجزائرى ، وينحدر معها التعفن الاستعمارى إلى أقصى الدرجات .

فالبلديات على ثلاثة أنواع :

١ — البلدية التامة : وهى تشمل كل المدن فى الجهة الشمالية ، وبعض القرى . وإذ كانت أغلبية المجلس البلدى مؤلفة من الأوربيين (٣ من ٥) فشيخ المدينة ، أو « المير » يكون دائماً فرنسياً ، استعمارياً ، وقد ألف شيوخ المدن هؤلاء جمعية استعمارية تملى إرادتها على الدولة وعلى الحكومة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويرى هؤلاء الأنانيون الجشعون ، أنهم أصدق من يمثل الرأى العام الأوربى ويعلنون ما يكتمه غيرهم ، من العداوة ، والبغضاء ، للعنصر الإسلامى .

والبلدية عبارة عن إدارة ضخمة ، تتناسب وقيمة المدينة من حيث الغنى ، والاتساع ، والعمران ، وهى كالإدارات السابقة : فرنسية ، عنصرية استعمارية ، قلما رأيت فيها موظفاً مسلماً ، إلا النادر ، اللهم إلا طبقة البوابين وكانسى الطرق وأضرابهم .

٢ — البلدية الممتزجة : وهى توجد فى الجهات التى يقل فيها العنصر الأوربى ، فخلقوا لها نظاماً خاصاً كيلا تكون بلدية عربية ولا وطنية .

فهذه البلدية يديرها موظف فرنسى ، مطلق التصرف ، يدعى المدير أو « الادمنستراتور » وله مجلس ينتخب الفرنسيون — مهما قل عددهم — أغلبيته . بينما تعين الإدارة تعيينا ، جماعة من أعوانها ، لتمثيل المسلمين . ورغم أن دستور عام ١٩٤٧ ، قد أعلن الغاء هذا النظام الفاجر ، فإنه قد بقى موجودا إلى يوم اعلان الثورة . وكل الموظفين من الفرنسيين .

٣ — البلدية العربية : ولا تسرع فى التفاؤل . فليس لها من العربية إلا الإسم . فهذه البلديات توجد فى بلاد الجنوب العسكرى ، ولا ينتخب السكان أحدا فيها . فالفرنسيون فيها هم رجال السلطة العسكرية ، والمسلمون فيها هم أعوان تلك السلطة ، من : قياد ، وغيرهم . والقائد ، فى الاصطلاح الإدارى الجزائرى ، هو موظف صغير مسلم ، يختارونه غالبا من قدماء المحاربين ، ليكون حارسا للنظام فى القرى والمداشر والبادية ، يعين

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

السلطة على استخلاص الضرائب ، ويجند لها الناس ، ولا تدفع له الإدارة مرتبا يكفيه ، بل تكتفي بالتغاضي عن الأساليب الحقيرة التي يسلكها لكسب عيشه ، وتوسيع ثروته ، من عرق جبين الجياع العراة من المسلمين .

المجلس الجزائري

هو المجلس الذي جاء به دستور الجزائر الجديد ، الذي « منحته » فرنسا سنة ١٩٤٧ ، وهو مجلس له النظر الواسع في ميزانية الجزائر ، تحت رقابة المجلس الوطني الفرنسي ، ولا ينفذ قانون فرنسي في أرض الجزائر ، إلا بعد مصادقته ، بينما لا ينفذ قرار من مقرراته ، إلا بعد مصادقة مجلس فرنسا عليه .

وقد سنت فرنسا ، في غمرة من الأريحة والحرية ، مبدأ التساوي المطلق .... بين المسلمين والفرنسيين في هذا المجلس ، فالتسعة ملايين من المسلمين يمثلهم ٦٠ نائباً ، والمليون الواحد من الأوربيين ، يمثلهم ٦٠ نائباً كذلك .

هذا هو التساوي الذي تتفتق عنه عبقرية الفرنسيين ، عند ما يريدون أن يسلكوا في الجزائر سياسة حرة ! .

لكن خوفهم من كل ما هو جزائري ، وكل ما هو مسلم ، جعلهم يخشون سوء مغبة هذه التسوية في العدد ، فاكتشفوا طريقة تقيهم هذا الخطر ، وجربوها ، وأمعنوا في تجربتها المرات العديدة ، إلا وهي طريقة :

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تدليس الانتخابات ! فالإدارة تعين مرشحها من قبل ، من بين الصم البكم العمى الذين لايفقهون ، ولربما تسامحت أحياناً ، فرضيت عن ترشيح بعض أصدقائه من النخبة « المعتدلة » . ثم تصدر الأوامر لكل الادارات ، والبلديات ، وجميع رجال السلطة ، بأن المرشح الذى « يجب » أن يفوز هو فلان ، وتتنافس سلط البلديات التامة ، والممتزجة ، فى استعمال وسائل التزوير ، والتدليس ، والسرقة ، لفوز المرشح الحكومى ، إلى أن أصبح الانتخاب فى قطر الجزائر علة العلل ، وطالما أعلن المسلمون مقاطعتهم لهذه «الانتخابات المدلسة» ، لكن ذلك لم يغن عنهم شيئاً ، فالمرشح الحكومى فائز أبداً ... ولو لم يباشر العملية إلا النزر اليسير من المسلمين .

وقد اعترف — بعد فوات الوقت — أعضاء المجلس الوطنى الفرنسى بهذه المآسى الانتخابية ، وهذه التدليسات الحقيرة . وتباروا — بعد اعلان الثورة الجزائرية الكبرى — فى وصف آفاتها ، وطريقة وقوعها . وأعلنت الحكومة التوبة جهاراً . وقالت : ليكن الانتخاب فى قطر الجزائر حراً ، فى مستقبل الأيام ، حتى نتمكن من التفاوض مع ممثلى الرأى العام الحقيقيين ، ثم حلت المجلس الجزائرى المزيف .

كفرعون موسى ، حين أعلن ايمانه ، بعد أن أدركه الغرق .

أما الميزانية الجزائرية التى يتصرف فيها الاستعمار والمستعمرون ، بواسطة نوابهم ، وبواسطة أذيال نوابهم ممن رضيت الإدارة عنهم من المسلمين ، فقد بلغت مبلغاً ضخما يزيد عن مليار وعشرين ملياراً من الفرنكات .

أغلبها يدفعه أبناء البلاد ، لأنه مفروض على الاستهلاك . لكنها تنفق على الاستعمار ، تاركة المسلمين للفقر والجهل والاهمال .

المجالس العمالية

لكل عمالة مجلس منتخب، كان إلى إعلان الثورة الجزائرية الكبرى ، يتألف من ثلاثة أخماس للنواب الأوربيين ، وخمسين فقط للنواب المسلمين (ثم سوى بعد ذلك ، على نفس قاعدة المجلس الجزائري .) . لكن مآسي التدليس الانتخابي فيه ، كانت توازي أو تكاد تفوق مآسي انتخاب المجلس الجزائري ، ولا تكاد ترى فيه إلّا مَنْ يرضى عنه الاستعمار، أو من رشحه الاستعمار ، وقليلا جدا ممن بعثت بهم المدن ضد أرادة الاستعمار .

وهذا المجلس ينظر ميزانية العمالة ، وينفق معظمها في صالح الاستعمار والمستعمرين الفرنسيين . وأن تكلم نائب حر عن مصلحة المسلمين ، فلا يسمع له قول ، وأحيانا لايسجل كلامه في محضر الجلسة ، فالجزائري غائب عن الحكم وعن المجالس دائما .

المجالس البلدية

كل مدينة ، وكل بلدة تنتخب مجلسا بلديا لأدارة شئونها . وبما أن أعمال السرقة والتدليس تصعب داخل جدران المدن الكبيرة — وأن كانت تقع على نطاق واسع — فلم يجازف القانون بسن التسوية البشعة الآنفة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الذكر ، على قاعدة ٩ = ١ ، بل حرص على إن يبقى للأوربيين مهما قل عددهم ثلاثة أخماس المقاعد ، وأن يكون للجزائريين ، مهما سما عددهم ، الثلثان الباقيان . وبهذا يضمن الاستعمار لنفسه أمرين :

أولهما : أن شيخ المدينة « المير » لا يكون إلا فرنسيا .

وثانيهما . أن كل ما يقترحه الجزائريون ، على قلتهم ، يرفض . وكل ماأراده المستعمرون ، ينفذ ، ولو عارضه الجزائريون باجماع .

مجالس الجماعات

فى القرى والمداشر ، والقبائل الجبلية ، والبدوية ، ينتخب الجزائريون مجالس تدعى « مجالس الجماعات » وتنتخب فى مجال محلى ضيق ، وليس لرجالها أى سلطة أو نفوذ .

المجالس الفرنسية

كان الجزائريون ينتخبون للمجالس النيابية الفرنسية (المجلس الوطنى — مجلس الجمهورية — مجلس الاتحاد الفرنسى) من يمثلهم — نظريا — إلى جانب ممثلى المستعمرين الفرنسيين فى عدد متساو بين هؤلاء وهؤلاء .

وإذ أسفرت التجربة الأولى عن فوز الأحرار الوطنيين الجزائريين ، فأقضوا مضاجع النواب الفرنسيين ، وأن لم يؤثروا بأقوالهم البليغة وحججهم الدامغة شيئاً ؛ فان الإدارة الاستعمارية قد عمدت فى هذا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الميدان أيضا ، بل أكثر من الميادين الأخرى ، للتدليس والسرقة ، والتزوير . فكانت تزود المجالس النيابية الفرنسية بنوع من البضاعة البشرية ، لا يكاد يمثل الجزائريين فى قليل ولا فى كثير .

وهكذا كان الجزائريون غائبين عن الحكم وعن الإدارة ، وعن المجالس ، يهانون ويمتهنون ويحتقرون ، ولا يزيدهم أى عمل ، أو أى قول أو أى مسعى ، إلا أيمانا بأن هذا المنكر العظيم يجب أن يزول ، وأنه لا يزول إلا بواسطة القوة وحدها ، لأن قرنا وربع قرن من التجربة قد أرتهم أن الفرنسيين الاستعماريين لا يخضعون لمنطق ، ولا يسمعون كلمة الحق ، وأن الاندفاع فى ميادين الموت والتضحية ، هو سبيل الحياة الكريمة الشريفة ، فاندفعوا فى ثورتهم الكبرى ، وفقهم الله وسدد خطاهم .

— ٢ —

الأرض والاستعمار

هذه صفحة خزى وعار ، سجلها الاستعمار على نفسه ، وكان جشعه فيها ، هو سبب المصرع الوخيم الذى ينتظره ، والذى يتذوق الساعة منه مرارة الاحتضار .

فالنظام الاستعمارى القذر ، العفن ، قد استولى عنوة واقتدارا ، بواسطة اللصوصية والقتل ، والإعدام الجماعى ، والتدليس ، على معظم الأرض الفلاحية الغنية فى القطر الجزائرى ، تلك الأرض التى كانت عنصر

عيش الجزائريين ، وكانت تكفى لحياتهم حياة هنيئة ، وتسمح بتصدير الفائض منها إلى الخارج ، فى تجارة واسعة .

أن الأرض الفلاحية فى القطر الجزائرى تشمل عشرين مليون هكتار يعترف الاحصاء الرسمى الفرنسى أنها توزع هكذا :

٥,٠٠٠,٠٠٠ هكتار تملكها الدولة الفرنسية ، ومنها أرض الأوقاف الإسلامية المغتصبة ، ومقدارها مليونان هكتار .

٤,٠٠٠,٠٠٠ هكتار تملكها البلديات ، أى النظام الاستعمارى الفرنسى وكل هذه الأرض يستغلها الاستعمار لفائدته .

٢,٥٠٠,٠٠٠ هكتار ، ملك خاص لطائفة المستعمرين «الكولون» وهى أجود الأرض ، وأكثرها خصبا ، وأحسنها موقعا ، فى الجهات التى تكثر فيها الأمطار ، وتوجد بها أعمال الرى يملكها ٢٦,٠٠٠ مستعمر

٨,٥٠٠٠٠٠ هكتار ، من الأرض القاحلة الجرداء ، التى ليس بها رى ، ولا تنال من المطر إلا قليلا ، بقيت بأيدى الجزائريين ، فى مناطق الجبال والنجود والصحراء ، توزع على تسعة ملايين نسمة .

وهكذا ، لم يكتف الاستعمار الظالم بأبعاد الجزائريين عن الحكم ، والإدارة ، والمجالس ، بل أبعدهم قبل ذلك ، ومع كل ذلك عن أرض آبائهم وأجدادهم ، وتركهم للبطالة ، والتشرد ، والفقر والاهمال .

(شكل ١٩) ابنة المستعمر فى جنة أبيها

وقد ألفت فى فظائع الاستعمار ، وتشريده للجزائريين من أرض وطنهم الكتب العديدة ، ونستطيع أن نلخص مأساة تشريد الجزائريين وأبعادهم عن الأرض فى المراحل الآتية :

أولا : كان المارشال دى برمون ، الفاتح الفرنسى ، المتهم باللصوصية والسرقة ، قد تعهد بالشرف ، على أحترام الدين ، وشعائره ومؤسساته كما

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تعهد بحفظ ممتلكات الأتراك — الذين أصبحوا بعد أقامة ثلاثة قرون من أهل البلاد الأصليين .

لكنه لم يكد يستقر له قدم فى الجزائر ، حتى أعلن مصادرة كل أوقاف المسلمين ، من أرض وعقار ، ومصادرة كل ممتلكات أبناء البلاد من الأتراك . وأخذ فى الاستيلاء فعلا ، على الأرض الفلاحية الغنية فى جهة الجزائر ، ووزعها على الحثالة التى صحبت جيش الاحتلال .

ثانيا : بما أن أغلبية المسلمين كانت تملك الجهات الشاسعة من الأرض ملكا جماعيا، قوامه العائلة أو القبيلة ، لا الفرد ، فقد صدر قرار سنة ١٨٣٢ ، يقتضى ملكية الدولة الفرنسية ، لكل أرض لا يستطيع صاحبها أن يستظهر بعقد امتلاك لها . وهكذا أصبح الاستعمار يستولى على أكبر مساحة من الأرض ، عنوة وظلما واقتدارا .

ثالثا : بعد ان انتهت الدولة الفرنسية من جرد أرض الأوقاف ، واستولت على القسم الأكبر من أرض الجزائر أصدرت قانون أكتوبر سنة ١٨٤٤ الذى يبيح لها بيع أرض الأوقاف للمستعمرين أو توزيعها عليهم ، وأن عقد « الوقف » الإسلامى لا يمنع صفقة البيع الفردى أو الهبة ، وهكذا استولى المستعمرون على كامل أرض الأوقاف وتوزعوها فيما بينهم .

رابعا : أصدر الاستعمار قانون ٣١ يوليو سنة ١٨٤٦ يتملك به كامل الأرض التى تقيم فيها القبائل الرحالة ، فأصبحت الغالبية العظمى من سكان البلاد ، تعمل فى أرض « الدولة » وأخذ الاستعمار يشردها شيئا فشيئا ، لصالح المستعمرين ، إلى أن لم يبق بين أيدى البدو إلا الأرض البور .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

خامسا — ما كادت الجندية الفرنسية تتغلب على ثورة الزعيم المقراني في البلاد القبائلية ، حتى أعلنت مصادرة كامل الأرض الفلاحية في تلك المنطقة ، ومساحتها نصف مليون هكتار ، ووزعتها على لاجيء الألزاس ، تاركة رجال زواوة الأشراف الميامين للجوع والفناء العاجل ، ولولا رحمة من الله ومعجزة الإيمان ، لما بقيت في تلك الجبال حياة لأهلها .

وهكذا شرد المستعمرون الجزائريين من الأرض ، واستأثروا بها دونهم ، ووزعوها فيما بينهم توزيعا غير عادل ، إذ من المستعمرين من يملك قطعة أرض تكفيه لحياته وحياة عائلته ، ومنهم عدد محظوظ ، نال ممالك شاسعة درت عليه ثروات لا يكاد يستطيع ضبطها . ثم هو لا يدفع عنها إلا ضرائب زهيدة جدا .

كانت نتيجة هذا التشريد الفظيع ، وهذه اللصوصية التي لا مثيل لها في التاريخ ، أن وقعت في البلاد الجزائرية مجاعة فادحة ، سنة ١٨٦٧ ، أدت إلى هلاك نصف مليون من المسلمين ، وأقفرت الجهات الكثيرة من البلاد الجزائرية ، بصفة لا تزال تعاني ويلاتها إلى الآن .

وهكذا كانت الحالة ، إلى قيام الثورة الجزائرية الكبرى ، يوم غرة نفامبر سنة ١٩٥٤ : أمة ذات تسعة ملايين من الناس ، تعيش شريدة مهملة في أرض كانت لآبائها وأجدادها فاستأثر بها الاستعمار دونها ، ولم يترك لها إلا القاحل والبور منها ، فهبت تستعيد حقها بالقوة ، بعد أن أعيتها الحيلة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

— ٣ —

الفلاحة

الأعناب :

إذا كان الاستعمار قد اغتصب أكثر الأرض الجزائرية خصبا وأحسنها ريا وأطيبها مناخا فإنه يستثمرها لصالحه الخاص ، دون مراعاة صالح البلاد ، وينتج فيها ما يعود عليه هو بالفائدة ، ثم ما عليه أن ماتت بقية البلاد جوعا

فالسهول الخصبة فى جهات عنابة ، والجزائر ، ووهران ، قد غرست كلها كروما لإنتاج الأنواع المتعددة من الخمور . فهذه الكروم تحجب اليوم مساحة ٤٠٠,٠٠٠ هكتار من أجود الأرض ، وتنتج سنويا نحو عشرين مليون هكتوليتر خمرا .

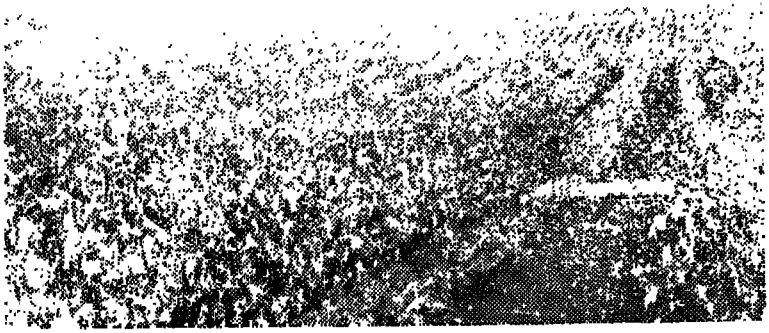

(شكل ٢٠) كروم استعمارية لا نهاية لها

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فهذا الخمر لايستهلك محليا ، إنما يعتبر وسيلة مقايضة تجارية ، فتضطر بلاد فرنسا لشرائه ، وذلك يسبب لها كسادا عظيما فى سوق خمورها الوطنية إنما هى تفعله مضطرة لمساعدة مستعمريها أولا ، ولبيعهم مقابل ذلك بضائع وآلات وأدوات من صنعها ، ثانياً .

أما أهل البلاد فقصارى أمرهم من هذه الحركة الواسعة العريضة ، أنهم يعملون فى حقول الاستعمار بأجور منخفضة جداً ، لا تكاد تسد الرمق ، ثم يقال أنهم لا يقومون بالعمل على الوجه الأكمل ، فيأتى المستعمرون بطائفة من العمال من أسبانيا ، ومن غيرها ، حتى يحرم الجزائرى من نفس ذلك الأجر الزهيد .

القمح :

زراعة القمح هى الزراعة الأساسية بالقطر الجزائرى ، وعليها معول السكان لحياتهم . فالسهول الداخلية ، وبعض الجبال والنجود ، تزرع قمحا ، وتأتى بمحصول واحد فى السنة ، وتتأثر هـذه الزراعة بالمؤثرات الطبيعية وأهمها الجفاف إذا كانت أمطار السنة قليلة . فتهدد المجاعة السكان المسلمين .

ومجموع الأرض التى تزرع قمحا ١١,٢٠٠,٠٠٠ هكتارا ، تنتج فى السنة نحو ٨,٥٠٠,٠٠٠ قنطاراً وهو مقدار لا يفى بحاجة السكان ، بينما كانت الجزائر المستقلة تصدر كل سنة كميات عظيمة من قمحها . وليس الجزائريون هم الذين ينتجون وحدهم هـذه القموح . بل أن الكثير من المستعمرين

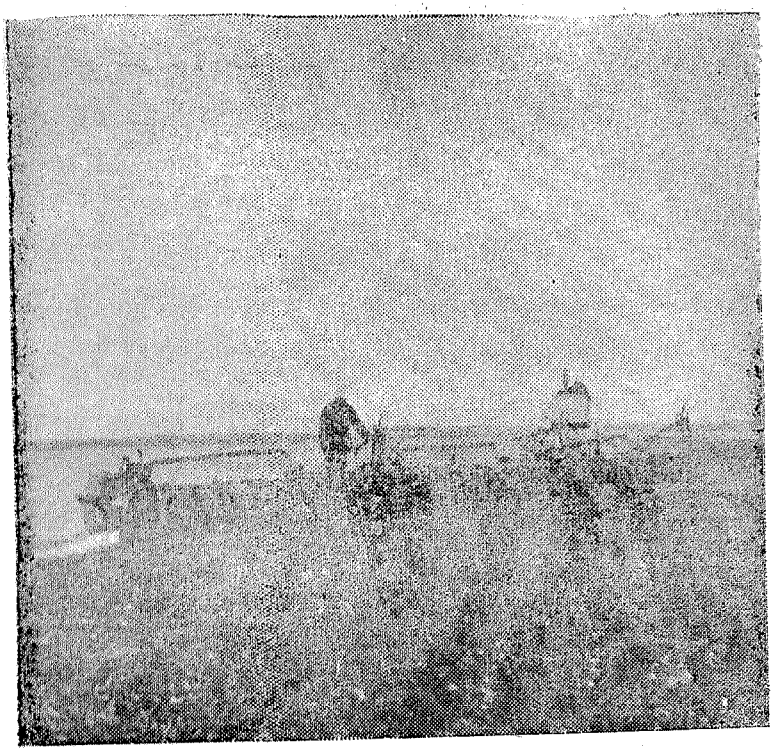

(شكل ٢١) مستعمر يحرث أرضه بآخر طراز من المحاريث

الذين انتصبوا فى الجهات الفلاحية الصعبة ، يشاركون فى هذا الإنتاج بنحو الثلث ، ويستعملون لزراعته ورعايته وحصده أحسن الآلات الحديثة ، نظراً لما بين أيديهم من وسائل العمل ، ووفرة القروض الحكومية والشركات الاحتياطية وغيرها ، أما أغلب المسلمين فلا يكادون يستعملون إلا أبسط

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

(شكل ٢٢) عربى يحرث أرضه بمحراث عتيق

الآلات ، وقد أوصدت دونهم أبواب البنوك وأبواب القروض ، فإذا ما أصابتهم جائحة ذهبت بالأخضر واليابس ، ونكبتهم شر نكبة .

أما السدود ، وأعمال الرى ، وخزن المياه ، فلا تفكر الإدارة الاستعمارية أصلا فى إيجاد شىء منها ، بالجهات التى يباشر بها الجزائريون فلاحتهم

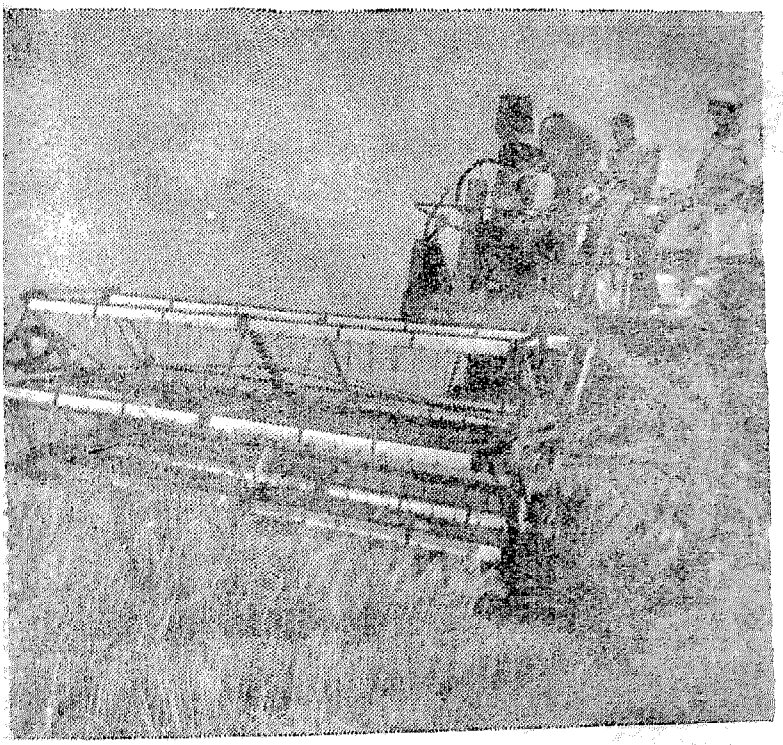

(شكل ٢٣) مستعمر يحصد القمح بآلة حديثة

الضعيفة ، فالإهمال فى كل شىء ، ذلك هو نصيب الجزائرى تحت حكم الإدارة الاستعمارية .

الشعير :

وهى الحبوب الثانوية بعد القمح ، تستعمل لعلف الحيوان ، ولغذاء الإنسان ، وللتصدير للخارج لصناعة البيرا .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

(شكل ٢٤) عربية تحصد القمح بمنجلها

فهذه الحبوب التى تكاد تكون غلة الجنوب الوحيدة تزرع على مساحة ١,٣٠٠,٠٠٠ هكتار ، وتنتج ٧,٥٠٠,٠٠٠ قنطار سنويا ، وإليها يرجع أكبر الفضل فى حياة الجزائريين بجهات الوسط والجنوب ، لكن الاستعمار شارك فى نفس هذه الزراعة البسيطة أيضاً ، وهو ينتج منها نحو السبع .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الدخان : أو الطباك :

من أهم المغروسات الصناعية فى قطر الجزائر ، وهوالشيء الوحيد الذى يكاد الجزائريون ، وخاصة أهل الجبال منهم ، ينفردون بغراسته . (تحت مراقبة إدارية صارمة) . وهويحجب نحو ٣٠ ألف هكتار . تنتج ٣٠٠ ألف قنطار فى السنة ، وبفضله يعيش أهل الجبال التى تحيط بمدينة الجزائر .

الحلفه:

نبت طبيعى كما أسلفناه فى الفذلكة الجغرافية ، يحجب كامل بلاد النجود الجزائرية وينتشر على نحو أربعة ملايين من الهكتارات التى قضى عليها الإهمال الإدارى الاستعمارى بأن تبقى بوراً ضائعة ، وتشتغل القبائل العربية الكثيرة العدد بقطع هذه الحلفه ، والاتيان بها لمراكز التصدير ، فالمحصول السنوى الذى يبلغ ١٥٠ ألف طن ، يسلم كله لشركة استعمارية واحدة ، تكاد تستثمرها عائلة مستعمرة واحدة ، ويأخذ العرب مقابل عملهم الشاق المضنى ثمنا زهيداً جداً لا يكاد يذكر، بينما تبيع الشركة هذا المحصول للبلاد الأجنبية ، وخاصة للمعامل الانكليزية ، بأثمان باهظة ، فتصنع منها الأقمشة ، والجيد من الورق .

حتى حلفة النجود المحرقة القاحلة ، يستأثر بها الاستعمار ، ولا تعود بالخير إلا عليه !